مكتبة ديوان العرب تقدم لكم
رواية

دموع التراب -1-

بنت المقبرة

للكاتب الأردني

بسام السلمان

- 1 -

دخلنا المقبرة..
كانت بثوبها الأبيض الذي لم يتلون بعد، وكنت في ملابسي السوداء ، ليس حدادا على أحد بل فرحا بعرسنا.

2

قالت بعد أن انتهت مراسم الزفاف وتركنا الناس الذين شاركونا العرس:

- هل ستفي بوعدك ؟

تجاهلت كلامها مدعيا أني ناس، فانا لم أكن أظنها جادة في طلبها..

- عن أي وعد تتحدثين؟

تبسمت وقالت:

- اتمنى ان لا يكون النسيان صفة ثابتة لديك.

تغابيت قليلا وقلت.

- لا ادري عن ماذا تتحدثين.

- زيارة المقبرة.

ليلة العرس في مقبرة.. شيء لا يصدق.. نسيت وعدي أو لم أكن جادا وقتها.
قلت لها مبتسما ومتجاهلا:

- أي مقبرة أيتها العروس الياسمينة؟

قالت بابتسامة حزينة:
-زيارة المقبرة قبل زيارة جسدي.. هل نسيت؟
المقبرة؟! وفي منتصف الليل. وليلة زفافنا.
قلت لها متذكرا وعدي:

- لا، لم أنس ولكنها ليلة دخلتنا وهي ليلة العمر.. إنها ليلتنا
- لكنه الشرط ووعد الحر دين.
- ألا نستطيع تأجيل زيارة المقبرة إلى صباح الغد أو ليله إن أردتها ليلا.
طأطأت رأسها قليلا وابتسمت برجاء وقالت:
- لا، أرجوك فِ بوعدك.

منذ آلاف السنين ومئات العرسان مثلي ينتظرون هذه الليلة وهذه اللحظات، منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أمني النفس بليلة دخلة، أفرغ فيها كل محبتي داخل رحم عروس ليكون طفلا مشتركا يجمعه الحب.

منذ أن كنا نلعب -عندما كنا صغارا -عريس وعروس في بيت تسوره الحجارة الصغيرة دلالة على الخصوصية ، وأنا أرى في تلك الفتاة الغجرية التي كانت تسكن في خيمة قرب منزلنا في ساحة الحارة..كنت أراها عروسا في ليلة دخلة..

لا بد أنك تعشقين الموت.. وتحبين القبور، وإلا ما الذي يجعل من عروس تبدأ حياتها الغرامية في زيارة القبور.

**

-3-

ودخلنا المقبرة..
سكون مخيف..ارتعشت خوفا .. خفت ألما.
هي سرت جدا . ضحكت وارتعشت فرحا.بكت بعد أن فرحت.
بكيت خوفا ورعبا وندما.. بكيت حسرة على هذه الليلة.
بكت فرحا قديما محبوسا في صدرها النافر الذي انتظرته كل هذه السنين.
الوقت منتصف الليل.. عريس وعروس بلباس الزفاف بين القبور، انه الجنون كله.حاولت التكلم ، غصت أحرفي في فمي .لم أستطع الكلام..
قرأت هي قرآنا للأموات.لم أستطع قراءة الفاتحة ..
نظرت إلّي وتبسمت ..حسبتها جنية في منتصف الليل خرجت لترعبني وتتلبسني..جنية جميلة..بنت ملك من ملوك الجانّ..
تبسمت ثانية، فخفت مرة أخرى وازدادت مشاعر الرهبة والرعب في داخلي..
حسبت نفسي سأدفن هذه الليلة في هذه المدينة العامرة بالأموات.
لماذا أطاوعها؟ ألست الرجل الآمر الناهي ؟
ضحكت من نفسي وأنا أرتجف خوفا ..تذكرت صديقي عندما قال لي أول أمس.. قبل زفافي المتعوس والمنحوس بليلة واحدة:
-(احذر الخوف فانه يمنع الانتصاب).
أي انتصاب وأي خوف.. إنني الآن غير قادر على الوقوف.
تحركت نسمات هوائية باتجاه المقبرة قادمة من المدينة النائمة والغافية والمطلة على مقبرة ليلى شرقا والشلالة غربا.

حركت هذه النسمات أشواكا وجدت لها بيتا بين القبور وتيبست لتكون كساكني هذه المدينة. أخرجت الأشواك حفيفا خفيفا فهبط قلبي حتى أنّي شعرت به بين قدميّ.. ازداد قلبي خوفا وألما ورعبا.
هي ما زالت تتنقل بين القبور .. تصافح قبرا وتقبل قبرا وتقرأ الفاتحة فوق رأس قبر آخر.
جلست في وسط المقبرة.
سكون مخيف. قبور درست ولم يتبق منها إلا حجارة صغيرة تكاد لا يبان لها أثر. وقبور جديدة محاطة بطوب على شكل مستطيل ممتلئ بالأتربة، قبور لأطفال رضع ، صغيرة ما زالت تبكي أمهاتها جوعا أو ألما.
شعرت بخوفي وقالت:
-تحمّلني.. فأنت أحببتني وقبلتني رغم كل الظروف السيئة التي أحاطت بي كالسوار حول المعصم.
لم أتكلم أو لم أستطع أن أتكلم.
أمسكت بيدي فشعرت بشيء من الطمأنينة .. سحبتني إلى قربها وقبلت باطن كفّي وقالت :
-أنت إنسان عظيم.
ورمت برأسها على كتفي فنسيت خوفي. ونسيت المقبرة .
قالت:
-أترى هذه القبور..إنّ من يسكنها يسمعنا ويرانا ونحن، رغم كل تكنولوجيا العالم والعلم وتقدم الإنسانية لا نستطيع سماع أو معرفة شيئا بسيطا عنهم.
حاولت إخراج حرف واحد من فمي لم أستطع. أشعلت سيجارتي لأخفف عن نفسي.
قالت:
- إنهم أحياء وأحرار داخل قبورهم في عالم لا يعلمه إلا الله، ونحن أموات وسجناء داخل هذه الدنيا..
لماذا نخاف من القبور .. أتعرف أنني عشت ليال طويلة منذ نعومة أظفاري بين القبور..
كانت ملجئي عندما هربت من ملجأ الأيتام ..وكان ساكنوها أهلي عندما قتل أهلي بصاروخ أعمى وأصبحت بلا أهل أو مكان ..
خرجت أحرفي هذه المرة غصبا، وكان الخوف هرب منّي بل إنّ كلماتها طهّرت قلبي من الخوف.
قلت:
- أنا بيتك وأنا أهلك.
- قلت لي يوما أنّ اسم المقبرة ليلى لماذا ليلى؟
تذكرت أمي وجدّتي عندما كنّ يدعون على أحد ما يقلن :
-(إن شا الله بتزور ليلي)
قلت لها:
-يقولون إنّ أوّل من دفن فيها فتاة اسمها ليلى وأن والدها تبرع بالأرض التي دفنها فيها لتكون مقبرة، وقد تكون نسبة إلى ليلى الفتاة العربية العشيقة التي ماتت عشقا.
كلّ المقابر العربية ليلى.

-4-

رأسي مثقل بذاكرتي

يحاول التخلص منها وتحطيم كلّ أشرعتها وتدمير حصونها وأسوارها، لكنّ ذاكرتي كسرت رأسي وحمّلته ما لا يطيق وما لا يستطيع ..ذاكرتي أقوى من رأسي.

ذاكرتي ليست ككلّ الذاكرات ، ذاكرتي كبيرة ومريضة، لا بدّ من وجود ذاكرة كبيرة مثل ذاكرتي لكن لا يوجد ذاكرة تجمع السعة والمرض في آن واحد..

ذاكرتي تجمع كلّ شيء من البداية حتى إذا ما وصلت إلى نهاية الأمر تدحرجت كل الذكريات والمخلفات التاريخية من جديد .. وا.. ذاكرتي كبيرة تتسع لكلّ هموم العالم . واسعة وغير محدودة لكنها مريضة. ما أن تبدأ بالوصول إلى المنتهى حتى تترك كل شيء فيها للضياع.

حياتي مقبرة كبيرة..

لو سمح لي بإعادة حياتي منذ الرحيل الأول عندما اغتصبوا أرضي وأمي حتى موعد اغتصابي كنت عشت حياة غيرها، وكنت دربت ذاكرتي وعودتّها أن لا تتسع وتبقى طفلة صغيرة ترعى بطرقات الحيّ الترابية فلا تمرض..لكنّنا لا نختار أسماءنا ولا أعمارنا ولا ذاكرتنا أو تاريخنا.

سأبدأ من حيث وصلنا..

سأبدأ من المقبرة التي تعتبر بداية التاريخ لحياتي وبداية الموت لزمن أصر أن يظلّ يعذبني في سجوني الكثيرة.

المقبرة التي تمنّيت عليك أن تكون أول ليالي زفافنا هي بداية التاريخ الذي أبدأ منه أول صفحات حياتي.

أحتاج منك القليل من الصمت والقليل من الإصغاء، أحتاجك كورقة بيضاء أخطّ عليها ذكرياتي وذاكرتي لتصبح أنت التاريخ الذي يحملني ليله ونهاره.

اسأل نفسي قبل أن تسألني أنت :

من أنا ومن هي ذاكرتي...

أنا متعبة وأحتاج إلى كتاب أبيض أرتاح فيه وأخطّ عليه حبر حياتي.. أحتاج إلى ذاكرة بعيدة عن العفن أغفو على بابها وتحت ظلالها . لكنّي لا أريد أن أكون متسولة على أعتاب ذكريات الآخرين ، أريد أن أملك المفتاح الذي يفتح لي أبواب الأجساد والكلمات والكتب البيضاء لأسطر عليها حروفي الكثيرة.

-5-

كنت طفلة أحب أرضي وتاريخ حضارتي ونشيدي الوطني..

منذ أول ليلة عشناها في المقبرة ونحن نحمل ما خفّ حمله ..كان أبي يحمل كيسا على ظهره فيه كل ما نملك ويحملني بالتناوب مع أمّي..كنت ابنتهم الوحيدة ، وكان النهر آخر مكان يجمعنا وآخر زمان لنا.

قطعنا النهر في منتصف الليل، لم يكن أحد منّا يملك أن يحدد الوقت .انطلقنا من مخيم جنين قاصدين الأردن، كنا نسير مع العشرات من العائلات الفلسطينية الهاربة من شبح الموت والحرب .

كنا نسير بغير هدى ، كنا على غير هدى محمّلين بالألم والهموم والخوف وشبح الضياع الذي بات يطاردنا. والتقينا على غير موعد مع قافلة عسكرية مكونة من مجموعة من السيارات العسكرية والشاحنات، حاولنا الركوب في إحدى الشاحنات ، كنت أنا ووالدتي وأبي وخمسة من أقاربنا ، صعد أبي إلى الشاحنة

وأمسك بيد أمي وساعدها على الصعود إلى صندوق الشاحنة . كنا قطعنا النهر قبل الالتقاء بالشاحنات العسكرية, وفي لحظة كان يمدّ أبي يده فيها لي ليسحب جسدي الصغير إلى الشاحنة فاجأتنا طائرات عسكرية بقصف مقدمة القافلة ، قصفتنا بمختلف القنابل وتحول معظم السيارات إلى هياكل من الحديد المفتت، وفي تلك اللحظة الأخيرة من طفولتي تحركت السيارة التي فيها والداي هروبا من القنابل وبقيت وحدي أصرخ من الأرض المحروقة وأبي وأمّي يصرخان من السيارة المطاردة بقنابل النابالم. لكن الطائرات لحقت بالسيارات الهاربة وزادت من نيرانها والقصف الصاروخي وأصاب صاروخ أعمى الشاحنة التي تقل أهلي وقتلتهم.
بقيت وحدي شرقي النهر لا أدري ماذا أفعل، أهيم على وجهي مشردة أحمل بيدي دفاتر أبي ودموع أمّي كنا عددا من الناجين المتعبين المشردين.
دخلنا قرية نائمة لا أعلم عنها شيئا.. كان الوقت مظلما وأنفسنا كانت ظلمة، بتّ تلك الليلة في ساحة لا أعرف عنها شيئا.
كل الذين رافقونا ونجوا في قافلة الهروب من القتل دخلوا في نوم عميق فاجسادنا عانت التعب والخوف والارهاق.. كنت اليقظة الوحيدة بينهم لم أستطع النوم خوفا وألما ، حزينة على موت والديّ، فقدت كلّ شيء ، هرب النوم والتعب لأني كنت طوال رحلة النزوح محمولة على الأكتاف حاملة ألم اليتم.
خلوت إلى نفسي الصغيرة- سنوات قليلة من عمري عشتها طفلة ثم كبرت فجأة.. في ليل بدأت فيه حياتي الأخرى.
حدثت نفسي بصمت طفولي..مسدت على رأسي وشعري المجدول ضفائر .. كانت أمي تصنع لي منه كل صباح ضفيرتين تكادان تلامسان ردفي..كانت كل ليلة جمعة تدهنه بزيت الزيتون حتى يطول أكثر..لا أدري من أين حصلت امي على سرّ هذه الوصفة لكني أعرف أن أمي تمتاز بشعر أسود جميل وطويل.
حديثي مع نفسي الطفلة بدأ من مدرستي التي تركتها في المخيم على أمل العودة.. مدرستي ذات البناء الصغير التي كانت تفتح ذراعيها لنا صباحا بعلمها المرفوع على سارية عالية وننشد تحته بفرح:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان
فلا حد يباعدنا ولا دين يفرقنا

انظر في كل الإتجاهات، كل الإتجاهات تؤدي إلى الخوف وإلى الرعب، أكرر النظر فلا أرى نورا..
هناك غرب النهر تركت مدرستي وحقيبتي المدرسية وكتبي ودفاتري وأقلامي..
نهضت لأكتشف المكان الذي اتخذناه مناما لنا ..تمشيت قليلا بين الأجساد النائمة حد السبات من التعب.. عثرت قدمي بحجارة متراصفة متقاربة..حجارة تشبه البيوت التي كنا نبنيها ونحن نلعب(بيت بيوت)..
كانت بيوت صغير، كثيرة..كثيرة جدا ..تحسست أحدها إنه مبنيّ على شكل قبر..وكذلك الآخر والثالث آه ..إنها قبور وهذا قبر..يا إلهي إننا نبيت في مقبرة دون أن ندري.
لا أحد يستطيع أن يزور المقبرة في الليل... هذا ما تحدثت به جدتي.
وكانت تخبرنا أن رجال القرية يتراهنون على من يزور المقبرة في منتصف الليل ويقول :
(حنتش بنتش واللي بطلع بنتش).

وتخبرنا جدتي أنه لا يكتفي بذلك بل عليه أن يضع علامة على أحد القبور.
وتقول جدتي:
- (اخو اخته اللي بقدر يصل للمقبرة بنص الليل).
وتؤكد جدتي قلة من الرجال الذين وصلوا إلى المقبرة في منتصف الليل وفازوا بصينية الهريسة.
نحن في منتصف الليل ..وأنا وحدي في منتصف المقبرة ، لكنّي لا أستطيع أن أقول(حنتش بنتش واللي بطلع بنتش)
سألت نفسي ماذا أفعل؟ هل أوقظ النائمين؟ لكنهم متعبون جدا..حاولت أن أنام لكنّي لم أستطع النّوم خوفا..
فتاة في أول طفولتها.. الطفولة ربيع الحياة.. طفلة ما زالت تعقد شعرها بضفيرتين تصحو على حلمها داخل مقبرة..
تصبح الطفولة في زمن الحرب مملة وقاتلة.. وتصبح واجبا يؤديها الأطفال غصبا عنهم .
قلت لمعلمة التاريخ قبل أن يغتصبوا أمي بأيام:
- هل التاريخ مزوّر؟
ضحكت معلمتي الفاضلة وقالت:
- لا.. ولماذا يزور؟
تبسمت شفتاي الصغيرتان وقلت لها:
- لماذا لا يوجد أي شئ عن الأطفال في التاريخ؟ ألم يكونوا موجودين أم أن الكبار يولدوا كبارا؟
وضعت معلمتي الفاضلة يدها على رأسي الذي ما زال يلمع من آثار زيت الزيتون وقالت:
-التاريخ يصنعه الكبار ..الأطفال- يا ابنتي- لهم حياتهم الخاصة المليئة بالأمل والسعادة والبعيدة عن الألم والمتاعب.
طفلة في السنوات الأولى للطفولة تنام بي القبور.عدت إلى حيث يغطّ الجميع في نوم متعب. وضعت رأسي في حضني وضممت ساقاي الى صدري ولففت يديّ حول أذني وعيني ..
حاولت النوم لكن الخوف ظل رفيق ليلتي..حتى صاح ديك القرية معلنا للجميع انهضوا فأنتم أموات..
أترى هذه القبور..إنها مليئة بالأموات ونفسي كانت مقبرة وذاكرتي مليئة بالأموات..
تصمت كثيرا!
-طلبت مني الاستماع والصمت.
-أتدري أي شئ جعلني أطاردك.. نفسك القلقة ..عيونك تشي بأنك دائما قلق كأنك تحمل هموم الدنيا على ظهرك..وصمتك العجيب...
- لا يوجد في هذه الدنيا من لا يحمل هموما.
- الهموم هي التي تحملنا
- كنت كلما رايتك ازددت حبا وامعانا فيك وفي نفسك الحائرة وفي عيينك القلقتين المليئتين بالصمت.. الصمت الذي ينطق دون حروف..كلما امعنت فيك اكثر كلما ابتعدت عنك اكثر واحسست اني اسير، اننا نسير في دربين متوازيين باتجاهين متعاكسين..دربك الخفي عليّ المحفوف بالصمت حتى انني اكاد لا اراك مع اني انظر اليك..لكن حلمي يقربني منك ويجعل من الطرق المختلفة تلتقي في شارع ضيق ارسمه لنا.

حاولت ان الفت انتباهك نحوي بكل الوسائل لكنك كنت تصمت معي وتذوب احرفا مع غيري من الطالبات.. حاولت ان اهاتفك لكني عجزت عن رفع سماعة الهاتف.. قررت ان اجئ اليك فجأة..ايقنت انك اذا جئتك فجأة، ستأتي بلا موعد.
جئتك نظراتي زائغة..عيوني تحكي قصتي من بقايا دموعها..رأيتك وحدك..لاول مرة تجلس تحت شجرات الصنوبر في شارع كلية الاداب وحدك..الجامعة ملك لنا..انا وانت..الجامعة فارغة..او بدت لي فارغة..اختفت اصوات الطلبة وظل حفيف اوراق الشجر وزقزقة العصافير رفيقينا..
درت حول المكان الذي تجلس وتدخن فيه..السيجارة في يدك وكوب القهوة امامك..درت حول نفسي قبل ان ادور حولك..رأيتني .. اخرجت السيجارة من بين شفتيك..اطلت النظر الي بعينيك الصامتتين ..لم تتكلم دخنت بقسوة ورشفت القهوة ..رميت بنظرك الى الارض مرة اخرى..
انني ملعونة من بين كل النساء..
بكيت..
سالت دموعي بشكل مفاجئ..دموعي تنسكب بصمت..عاودني الشعور بأني ملعونة.لماذا اتيت اليك؟ كرهت نفسي ..تمنيتها قتلت في ذلك النهر وانا طفلة يوم قتل والداي.
لماذا العن نفسي وابكي؟ اكنت متورطا معي في حبك..اكنت متواطئا معي في حلمي وفي همي..اكنت تدفعني لحبك دفعا..؟
اكنت تعاقبني يوم قررت ان آتي اليك غصبا لاعترف لك بحبي؟ اهو العقاب؟
لم احتمل لعناتي نفسي وعقابك لي..ينبغي ان اجلس بين يديك واتحدث..حتى وان لم تتكلم وبقيت العمر كله صامتا سأثرثر حتى تملكني ..ينبغي لحكايتي معك ان تتضح وتنكشف،امام كل هذه الاصوات التي تساندني امام صمتك وقلقك.. لقد آن الاوان لان يغادرني هذا الحلم.. حلمك واستعيد يقظتي فاما حبا يسر الصديق واما رفضا يغيض نفسي وروحي. روحي ونفسي اللتان تفتت انفاسهما لحظة احتويتني في حلمي وكنت الرجل الحلم.
شعرت خلال الدقائق القليلة التي جلست فيها معك تحت شجر الصنوبر والسرو في شارع الاداب باليقظة..شعرت نفسي صالحة مباركة وليست نفسا ملعونة مسحوقة.
قلت لك:
- لماذا تستفز نفسي..لماذا تثيرها باتجاهك وتتجاهلها؟!
شددت بشفتيك على سيجارتك اللعينة ونفثت دخانها في اتجاه معاكس لاتجاهي فاعاد الريح الخفيف دخانها الى وجهي.
قلت لك والصمت والسيجارة وكوب القهوة الابيض يشغلانك عني:
- لماذا تعذبني وانا.. وانا احبك..
رأيت قلق عينيك يتحول اليّ في استغراب.
تركتك مسرعة ..
خرجت من شارع كنت ادعيه لنا.
اجوب شوارع الجامعة مبللة عيوني بدموع كانت وما زالت رفيقة دربي..احسست نظرات عينيك جسما ثقيلا رميته على كاهلي.. لم استطع التخلص منه ورميه عن كاهلي.

تمنيت لو انك تساعدني كي اكرهك في حلمي..لكني كلما رأيتك صدفة بالنسبة لك..ولقاءا مخططا له بالنسبة لي اتسمر في مكاني وقلبي الملعون..كان ملعونا ..يتراقص بين ضلوعي غصبا عني..

يظل حلمي يواجه يقظتك ويستسلم لك..

رؤيتك تعيدني لحياة اليقظة وتخرجني من شرنقة الحلم الطويل الفرح..حلمي بحبك هو الفرح الوحيد الذي كنت اشعر ان نفسي تعيشه.

نفسي مراهقة تتردد في الحلم و ظلت نفسك تجبرني على البوح لك بحبي..كنت فكرت كثيرا قبل ان أجئ اليك فجأة.. كنت اسأل لماذا انا من يبوح؟في شرقنا الرجل يعترف للمرأة..الست امرأة؟

قلت لي انك بحثت عني بعد ان هربت بحلمي من عندك..

قلت لي انك بحثت في كل كليات الجامعة في المدرجات وفي كل قاعات التدريس حتى حمامات ا لطالبات كنت تراقبها..تبحث عني في الباصات النازلة الى قاع المدينة.

انت تبحث عني وانا اراك حلما في كل لحظات يومي.

امسكتني من كتفي .. كنا بعيدين عن الطلبة..امسكتني بيدك..التفت اليك جزعة..رأيتك فجأة شعرت بك تريد ان تضمني الى صدرك.... صرخت بوجك وقتها..صرخت دون ان ادري لماذا صرخت.

(ابعد يدك عني..)

تراجعت قليلا للوراء وتراجع حلمي معك..خفت ان تتراجع كثيرا..لكنك تقدمت كثيرا معتذرا.

قلت لي انك تحبني..

وقلت:

- احببتك رغم كل شئ.. عشقتك رغم جهلي بك.احببتك لاني اعرف انك تحبينني.

ضحكت قليلا وكنت اود لو ابكي كثيرا.

الان فقط ادركت معنى صمتك..

ذهبنا معا ..

حلمي ويقظتي..

سرنا وانا فرحة جدا حتى وصلت الى اقرب شجرة فارغ ظلها من طلبة الجامعة ، جلسنا..احسست وقتها انني انتهيت لان الحلم ينتهي عندما نستيقظ..وانا الان يقظة فهل اكون انتهيت ، لكنك رجل حلمي الذي لن استيقظ منه ابدا .

تخيفني ذاكرتي الواسعة والمريضة تخيفني جدا.. تجبرني دائما على الخوف.. كل الناس يمرضون بالنسيان الا انا فمرضي بذاكرتي القوية والمريضة..

هل اتنصل منك لان ذاكرتي لا تخونني وتظل بصحبتي كلما جلسنا معا.. وتحدثنا معا.. وضحكنا معا،

كانت ذاكرتي تنبش مخيلتي المريضة ، فابتدعك رجلا ترفضني وتطردني بعد ان تشي ذاكرتي لك بالماضي .. كل الماضي..

تقول لي:

- انت لغيري.. اذهبي عني .. انت لا تستحقيني..

لكني كنت اطرد اوهام ذاكرتي بحبك وبشخصك ..فأنت طيب القلب طيب الحب انت حلمي..

طاردتك في نهاري يقظة وفي ليلي حالمة.. في احلامي كنت متأكدة انك ستكون لي مهما ابتعدت مع الكثيرات من النساء.. كنت اراك تسير في الجامعة مع الفتيات فأشفق عليك اولا وعلى نفسي ثانيا.. فنحن مهما ابتعدنا فانا سنعود ونلتقي..

في يقظتي كنت اشفق على تلك اللحظات التي ستعرف فيها اني لست بكرا..نعم، انها الحقيقة

لكنه ليس ذنبي .. وحوش مزروعة في ليل الشوارع كالنخيل..قتلت هذه الوحوش ، قتلت في نفسي شهوة المراهقة وعفة الطفولة وخجل العذارى.

**

-6-

دخلت المدينة اول مرة طفلة يتيمة الاب والام..لم يحملني ابي كثيرا، ولم تعد امي تدهن شعري بزيت الزيتون وتصنع لي ضفائر تصل الى قدميّ او الى...

تلك الليلة التي استيقظت فيها من حلمي من طفولتي وصحوت على قبور متناثرة لا يرى فيها شيئا سوى القبور ورائحة الموت.

**

شوارع المدينة تحيط بكل شئ وتسير في كل الاتجاهات.. السيارات كثيرة وجميلة تسير بسرعة كانها في ميدان سباق ، لا شئ يوقفها او ينظم حركة سيرها، شرطي المرور حاذق بحركة يديه لكن الابواق..ابواق السيارات عالية ومزعجة.. اطفال يلعبون امام المنازل ونساء يشمسن اثاث منازلهن، طفل يجلس وامامه صندوق وفوق الصندوق يضع رجل قدمه والطفل يحمل بيده فرشاة كبيرة يمسح فيها حذاء الرجل، المحلات التجارية مليئة بالالبسة الرائعة والجميلة والتي كنت دائما اتمناها وكانت امي تخفف من صدمتي بالامنيات غير المتحققة .

وكانت تقول لي:

- ان شاء الله في العيد.

ويأتي عيد الفطر ولا اجد الفستان المليء بالازهار فتقول امي:

-ان شاء الله في عيد الضحية.

للمدينة اسرار خفية تختفي في شوارعها الخلفية وفي قاع المدينة وفي اشجار الياسمين.. اسرار عمان تنام معها في عتمة الليل وتصحو على صوت الديكة واشعة الشمس.

بدا لي لاحقا ان هذه المدينة مثلي يتيمة وانها عاشت سنوات طفولتها وشبابها في المقابر..

سألت يوما مديرة دار الايتام:

-لماذا نحن في هذه الدار نعيش الحزن دائما؟

صمتت مع قسوة في عينيها.

احسستها خريفا قادما بلا ميعاد.

تابعت التحديق في عينيها.

قلت لها:

-زيارتي لقبر اهلي تنعش حياتي وتخرجني من احزاني الخريفية.. اريد زيارة قبر والديّ.

حدقت بي ثم وضعت قلما كان في يدها ونهضت . اتجهت نحوي ، خفت ، سألت:

-اين اهلك؟..اقصد اين قبر اهلك؟ هل تعرفين مكانا لهم.

قلت لها بابتسامة خريفية:
-أي قبر هو قبر ابـي وقبـر امـي..انـا لا اعـرف قبـر والـديّ ولكنـي اشـعر ان أي مقبرة هي مكانهما واي قبر هو لاحدهما حتى القبور التي اراها في التلفزيون.
اعجبها جوابي على ما اظن ولاول مرة تمسح المديرة على رأس احد نـزلاء دار الايتام.
- انت طفلة وتحتاجين الى الربيع والسعادة ، فانسـي امر القبور.
كنا اكثر من عشر فتيات صغار نسكن فـي غرفـة واحـدة..نعـيش اسـوأ ايـام الطفولة في حياتنا.. تعرضنا خـلال الفتـرة القـصيرة للـضرب وللـشتم . لـم نكـن نعرف النظافـة..كانـت امـي تجبرنـي علـى غـسل شـعري كـل يـوم وكنـت لان شعري طويل اتهرب من غسله فكانت احيانا تعاقبني..
قالت احدى زميلات الغرفة:
-لماذا لا نهرب.؟
كنا في اول طريق الانوثة ،اول خطوة نخطوها على درج المراهقة، كنا نستطيع ان نهرب من دار الايتـام بـسهولة ويـسر، لكـن الـى ايـن نـذهب والبلـد تحتـرق ..الى من نلجأ ولا اهل لنا .
كانت البداية من الـدورة الـشهرية ..علمـت فيمـا بعـد مـن رفيقـات الجامعـة انهن فرحن جدا بالدورة الشهرية لانها كانت بداية الانوثة. لكن رفيقـاتي وجـدن امهات ، امهات يخبرنهن عن الدورة وعن الانوثة .
اما انا فكانت البداية..بداية الهروب من الدار...
جاءتنا احـدى المـسؤولات فـي دار الايتـام، جـاءت فـي سـاعة مـا قبـل النـوم ، فتشتنا، طلبت منا الوقوف ، امسكت قلما وفحصت شعرنا ، بحثت عن القمـل، وجدته كثيرا وكبيرا. لفت شفتيها واغمـضت عينيهـا وهـزت رأسـها.قـررت حلـق روؤسنا ..شعري وصل الى منتصف ساقيّ ، شعري تحبه امي وتعشقه.
امرتنا بخلع ملابس النـوم.بـدأت بـالقميص ضـحكنا مـن منظـر اثـدائنا الـصغيرة.. صرخت فينا..
صمتنا رعبا.
كنـا مـا نـزال فـي اللبـاس الـداخلي امـرت اول طفلـة بخلـع سـروالها الـداخلي فحصتها بعصاها. جاء دوري ، خجلت من طريقـة تفتيـشها لنـا، طلبـت منـي ان استدير، رأت بقعة حمراء على سروالي.
صاحت:
- ما هذه الدماء؟
خفت جدا ..
من اين جاءت الدماء؟! كنت في سابق الاشهر ارى نقطـا مـن الـدماء علـى ملابسي، لكنها لم تكن في حسابي الانثوي والطفولي تعنـي لـي شـيئا، لـم اكن اعرف ماذا تعني الدورة الشهرية والبلوغ.
صرخت في وجهي مرة اخرى وقالت:
-ضعي شيئا لهذه الدماء.. ايعجبك هذا المنظر.؟
لم ادري ماذا تقصد .بكيت جدا وتساءلت :
-من اين جاءتني هذه الدماء.
في المساء سالت اودية من اللون الاحمر، دماء كثيرة ، لم تعد البقعـة الحمـراء على مؤخرة سروالي الداخلي فقط ، انتشرت على ملابـسي وبللـت منـامتي وفرشتي ، لا اعرف كيف اتصرف.زميلاتي في الغرفـة صـرخن رعبـا مـن المنظـر وبكين جميعا.

جاءت المسؤولة تحمل بيدها العصا وقالت بعنف:
- لم تصرخن؟
صمتنا خوفا.
تجولت بيننا.
صرخت:
- اسألكن لماذا تبكين وتصرخن؟
اشارت احدى الزميلات بخوف الى الدماء.
اتجهت نحوي. وضعت العصا التي تحملها بين فخذيّ وباعدت بينهما وقالت:
- هذه دماء الدورة الشهرية.ضعي فوطة بين رجليك..غطي..غطيه..
وضربتني على مؤخرتي بقسوة وقالت:
- كوني نظيفة.
فكرت بالهروب..
تساءلت طوال الليل عن مصدر الدماء.لماذا ينزف الدم مني ؟ وماذا تعني بالدورة الشهرية. لا يوجد من يرشدني ، ما زلت طفلة لماذا قست عليّ ؟
فكرت بالهروب من الدار بشعري الطويل وانا اعلم ان احدا لن يفكر بأن يبحث عني..
غاب عني الليل ووحشته والم الوحدة. لم اكن اظن شوارعنا مزروعة بالوحوش.انا طفلة ومن يعبأ بطفلة مثلي..سيحنو عليّ احدهم ويدخلني الى منزله ، فأنا يتيمة واستحق العطف.
حدثت رفيقاتي عن الهرب.
قلت:
- يجب ان نهرب
-الى اين؟
- الى الجحيم..من الجحيم.
-لكنا صغار.
-لم نعد كذلك..اصبحنا نحيض.
-لن نهرب، لا مكان نذهب اليه
وقررت الهرب تحت اصوات الرصاص ، وعرضت نفسي لليل الشوارع.ربما اجد من يحنو على طفولتي ويمسح على رأسي الصغير..
***
-7-
ليل القرية لا يختلف عن ليل المدينة.
- كل الليالي العربية واحدة.
-كل الاحزان العربية واحدة.
مع اني دخلت قريتك مرة واحدة الا اني اعرفها اكثر منك..
- انا لا اعرفها فهي بالنسبة لي فتاة بكر.
-لكنك خير من جربها.
-لكنها مازالت بكرا..
اشبه قريتنا بالمرأة التي هجرها حبيبها اولا وترملت من زوجها مبكرة وترك لها اطفالا رضع وعندما كبروا تركوها وحيدة..
قريتنا بحاراتها المختلفة تشبه كل شئ ولا تشبه أي شئ..مسجدها العمري الكبير ذو المأذنة الحجرية الضخمة تقف شامخة بين المآذن الكثيرة..

وحارتها القبلية التي تفتح ذراعيها مرحبة بزوار القرية..حارتها القبلية هي الحارة الوحيدة التي ما زالت تعيش في حضن امها ولم تتركها..
الشلالة المكان الوحيد الذي وضعت فيه رأسي على رجلك ، نامت عيوني تحت ظل شجرة تين..وقتها تمنيت لو انك تقبلني لكنك كنت مترددا خوفا مني او خوفا من الناس المصطافين تحت شجر التين.
تركتني اغفو على ساقك لاكثر من عشر دقائق كنت وقتها اشم رائحة انفاسك واشعر باناملك تلامس شعري..كان في نفسك شيء ما. شهوة تتقد نحوي..رأيت عينيك تمارس الشهوة مع صدري الذي لم يتوقف عن الارتفاع والهبوط.. لماذا لم تقدم على تقبيلي..كنت اريدك ان تلامس جسدي باصابعك التي لم تعرف في الدنيا سوى القلم..
اتدري ان احب ارض الله الي الحارة القبلية.
-لماذا تحبينها؟
-لانها اول مكان نادى باسمك عاشقا لي، لان الحارة القبلية اول حارة بايعتك وبشرت بك حبيبا مسجلا في سجلات القدر.
الحارة القبلية تشبه كل احياء بلاد الشام، الحارة القبلية تشبة القرية، جميع الناس فيها يعرفون بعضهم ويدعون انهم اقرباء، الحارة ا لقبلية عدة احياء وليست حيا واحدا.

-8-

توجهت الى المقبرة..كان الوقت فجرا دخلتها بحثا عن ابي وامي لكنهما ليسا هنا..
سرت كثيرا وطويلا.
لا ادري كم مضى من الساعات والمسافات منذ ان هربت من دار الايتام..لكني هربت..هربت بشعري الطويل دون ان اعلم انا نفسي الى اين وجهتي، الي اين اذهب والى من التجئ.
- دخلت المقبرة هربا..
لكني في طريقي الى الموت تذكرت جدتي ورجال القرية والرهن عن كيلو هريسة:
- حنتش بنتش واللي بلحق بنتش.
لم ار شيئا، ولم اجد في عتمة الليل قبر والدي . سرت قليلا..اقتربت من احد القبور وضعت رأسي على حجارته ونمت حتى ايقظتني الشمس القاسية، نظرت الى المكان اتفحصه، مليء بالقبور والموت..
وحيدة اتنفس الهواء بين هؤلاء الراقدين في حياتهم.
احسست بالجوع، شدتني معدتي الما و جوعا احيانا والم الدورة الشهرية احيانا كثيرة ، لم تحمني قطعة القماش التي وضعتها تحت سروالي الداخلي من تسرب بقعة الدم على ملابسي حتى تراب القبر تلوث بي وبدمي.
دخلت المدينة قبل اربع سنوات طفلة تحملها احدى السيارات برفقة قريبي من المخيم يحمل في جيبه كتابا من لجنة المخيم الذي سكنت فيه مع اقاربي..يحمل الكتاب ختما دائريا وينص على شهادة اللجنة انني يتيمة الابوين ولا اقارب لي يعرفهم احد، ومرفق مع الكتاب شهادة ميلادي واوراق ابي الرسمية وغير الرسمية..
عندما دخلنا مكتب مديرة دار الايتام ، سلموني للمديرة ووقعت على استلامي ، احتفظت بالاوراق الرسمية واعطتني الاوراق غير الرسمية

لابي..كانت عبارة عن عدد من الدفاتر المكتوبة بخط جميل سجل فيها ابي ذاكرته الشعبية والنفسية قبل الرحيل وبعد الرحيل. كان لي فيها نصيب كبير وعندما هربت من المبرة حملت معي دفاتر ابي فقط.

دخلت شوارع المدينة طفلة مبهورة بالسيارات والاضواء الكبيرة وها انا ادخلها مرة ثانية وانا امرأة او اصبحت امرأة باللغة التي تترجم فيها الفتيات الصغيرات انفسهن كنساء بالغات..انها لغة الدم.

سرت ساعات كثيرة ابحث عن يد تحنو على رأسي المصدوم باشعة شمس ايلول وجوع الليل وساعات النهار الاولى . فكرت في طلب رغيف خبز من احد المخابز لكني فشلت خجلا.

رأيت اناسا يتراكضون بلا هدف، يهربون خوفا من شي ما يطاردهم ،هربت مع من هربوا ، جلست في زاوية احدى البنايات الكبرى وكان الرصاص اوجد فيها المئات من الثقوب، دخلت البناية الفارغة وجلست تحت بيت الدرج، سمعت صوت انفاس ، خفت وكان الصوت خائفا مني، رأيته بجسده الصغير الذي يشبه جسدي يختبئ خلف صندوق صغير، رآني تبسم لي وقال:

ماذا تفعلين هنا؟

- هربت مع من هربوا

من اين جئت؟

- من المقبرة.

- ماذا ، المقبرة؟!

- نعم ، المقبرة.. وانت ماذا تفعل هنا؟

- هربت من طخ الرصاص. الم تسمعي اصوات الرشاشات؟

- بلى سمعت، لكن من اين تأتي الاصوات؟

- من النوافذ ومن السيارات والزوايا من اسطح البنايات والدبابات .

سرت كثيرا احمل في يدي دفاتر ابي وفي معدتي جوع يمزق امعائي . الجوع قاس وكافر، هل جربت يوما ان تجوع؟ لا اظنك.

سمعت فجأة صوت المؤذن ينادي ، اذان الظهر ، كانت اصوات الرصاص توقفت ،ربما احتراما للصلاة. توجهت الى الصوت، خطاي ضعيفة، وانصاتي لصوت المؤذن كاد ان يرمي بي تحت عجلات سيارة، صرخ السائق:

-(عميا)

سرت قاطعة الشوارع باتجاه صوت المؤذن، وفجاء ظهرت مآذن المسجد الكبير،اسرعت خطاي باتجاه المسجد.رجال مسرعون باتجاه اماكن الوضوء واخرون يدخلون للمسجد .

اقتربت من الباب الرئيسي طمعا برجل يخرج من المسجد ويحنو عليّ بكسرة خبز. ورأيتها.رأيتها فجأة تجلس عند الباب ، طفلة مثلي او تصغرني بالدورة الشهرية وتكبرني بالاحزان، اقتربت منها ممزقة النظرات ، امامها بضعة قروش لم تبلغ قروشها الحفنة بعد..

اقتربت منها اكثر، اردت ان اجالسها بهمومي لكنها نظرتني بعيون من بلغ الستين الما وقالت:

- شو بدك، هاي منطقتي.

ابتسمت مدركة.

لا اريد منها شيئا سوى مشاركتي بعيونها احزاني..

قالت:

- ابعدي من هون، روحي لمكان ثاني احسن لك.

قلت لها.
- انا جائعة.. جائعة جدا.
نظرت حولها ، تفحصت المصلين ، مدت يدها الى قرش ورمته امامي وقالت:
- خذيه بسرعة واهربي.
انتظر الصباح.
الليل طويل وانا اجلس وحيدة تحت عمود الكهرباء.
كل ما حولي مليئ بالعتمة.
سيل من الخوف يحتلني..فراشي اصبح شارعا .
سيل الليل الحالك الظلمة يجالس طفلة لم تغير فوطة من القماش منذ يومين والدماء غيرت لون ملابسها، لم تتناول منذ يومين وليلتين الا قطعا من الخبز اشترتها بثمن قليل.
الخوف يستحوذ علي رأسي. يشاكسني يغلق نوافذ النور..انارة شبابيك البنايات تضاء وتطفى.
اصوات الرصاص في كل مكان..لو ان رصاصة طائشة تأتيني وتلحقني بأبي وامي ، لكن صاروخهما لم يكن طائشا.
شبابيك الحمامات صغيرة ، تضاء ، يخرج منها بخار حار مليء بالانفاس الحارة. اشم رائحة البخار يتصاعد من اجساد النساء، يتصاعد الى اعلى بعد تعب وجهد.
وانا ملقية بظهري الى عمود كهرباء وتلتصق ملابسي بجسدي المرهق والمراهق ، ولا شئ غير الملابس يحرك جسدي.
وانتظرت..
يمر الليل كئيبا قاسيا مخيفا ويمضي اول ليل لي طويلا مليئا بالتعب والارهاق يجر معه الما في رأسي لم يفارقني مدى الحياة ، يسير الليل الاول بطيئا متثاقلا كسولا.
بانتظار نهار .. لا ادري الى اين اذهب فيه .
تخرجني من خوفي اصوات رصاصات قليلة تتناثر هنا وهناك لكنها بعيدة عني.

-9-

كتب ابي في دفتره الاول:
(تزوجت فجأة ..كل شئ في الحياة يأتي فجأة ، وكل فجأة تأتي جميلة، لذلك كان زواجي جميلا لانه جاء فجأة .. كنت اعمل في مزرعة استأجرها ابي ، بيارات يافا جنائن ، عندما اخبرني ابي ان موعد زفافي نهاية الشهر..لم اكن اعرف من هي العروس. ابي رآها او امي رأتها واخبرت امها انها تريد البنت للولد . لم اكن ولدا كنت في العشرين وكانت هي في الخامسة عشر..وافقت ام العروس_ حماتي - فكان الايجاب والقبول.
كانت طفلة تلعب في الشارع وعندما اصبحت عروسا كانت اجمل النساء لانها جاءت فجأة.. كبرت واصبحت انثى بسرعة..البنت بتكبر قبل الشب).
وفي صفحة توسطت الدفتر الثاني كتب ابي.
(بعد زواج استمر تسعة اشهر من الحب..كنت علمت من جدتك ان امك حامل..لم تخبرني امك لانها تخجل مني.. اتعلمين يا ابنتي انني لم ار جسد امك في النهار ولا مرة او حتي في الليل.. بعد تسعة اشهر من الحب

المستمر بيني انا الفلاح الفلسطيني وامك السيدة الكنعانية التي تعشقني حد الموت كنت انت ولم نكن نريدك بنتا فكنت بنتا جميلة توقعناك ذكرا لان ابي كان بكره ولدا واخواني كلهم انجبوا ذكورا وانت الوحيدة التي كسرت القاعدة فكنت بنتا .

جئت فجأة لذلك كنت جميلة .مع انهم يدعون ان هم البنات للممات. لكنك لن تكوني هما على احد..

-10-

دخل المقبرة رجلان شابان..كنت استريح في مقبرتي ليلا..تعودت رائحة الموت وجيرة القبور..عنواني شرفة القبر الخامس على يمين باب المقبرة ..تعودت الليل والعتمة وخشخشة اصوات الاشواك الميتة.

كنت اسند ظهري لليوم الرابع على نصابية القبر ، كان القبر لشاب في اول ربيع حياته، جاورته صدفة واكتشفت فيما بعد ان له عشيقة تزوره خلسة ايام الخميس.. تزوره تحمل بيدها غصن ياسمين ، عرفت انه كان يعشق الياسمين .

اخبرتني انه قتل من رصاصة طائشة عمياء..هي تقول انها عمياء..الرصاص بلا عيون ولكننا نحن الذين لا نبصر ، قتل في عيوني شهوة الابصار.

ارتبطت مع ساكن القبر بصداقة غريبة شيئا ما ..احدثه ليلا فيسمعني كل الليل ، تمنيت لو يخرج لي بكفنه الابيض لاسئله:

- هل الرصاصة كانت عمياء؟..ولماذا وجدت اصلا الرصاصة؟..

الناس تخاف الموتى وانا اريد رؤية جاري الشاب ساكن القبر الخامس.. كنت على وشك النوم بعد ان تعبت نهارا ، عندما دخل الرجلان..دخلا المقبرة..كنت ما زلت اسير باتجاه المقبرة.دخلتها قبل ثوان قليلة لم اكمل طرح سلامي المسائي على جاري الشاب ، دخلا المقبرة ، كانا تتبعا خطاي الضائعة التعبة ، اقتربا مني..بكيت بصمت..رجوتهما بدموعي ،،قبلت اقدامهما. بكيت قهرا وظلما.

صرخت:

ابي..ابي..اين حملك لي على ظهرك يا ابي ..ما زلت طفلة تحلم بلعبة تحضرها معك تحلم بأن تحملها على اكتافك.طفلة تحلم بامها تربط لها شعرها ضفائر تلمع من زيت الزيتون..

يا ابي ..هم البنات للممات..هم البنات للممات يا ابي..همي معي للممات..

صحوت من نفسي على نفسي..وتغرقني دموعي الصامتة.

نهضت ..وقفت امام القبر..قبر صديقي..لم استطع مواصلة الوقوف..سقطت قدماي تحت جسدي تعبا ، حاولت مرة ثانية الوقوف خانتني قدماي، جلست مواجهة مع صديقي. نظرت اليه معاتبة.

لماذا لم تحمني .الست جارتك وحق الجار على الجار؟.الم اختر جاري قبل داري..لماذا لم تخرج لهم بكفنك الابيض، الست صديقتك والصديق وقت الضيق..

انت مثلي قتلتك رصاصة طائشة عمياء وانا قتلتني ثورة طائشة عمياء .كانت نفسي ثائرة وكنت هاربة بدموعي ودماء دورتي الشهرية فاصبحت هاربة من دموعي ومن دمائي اليومية..

-11-
ارتبطت بساكن القبر الخامس بعلاقة ود ومحبة.
فكلانا ميت وكلانا قتلته زعامة طائشة..انا قتلتني شهوة عمياء وجاري ساكن القبر الخامس قتلته رصاصة طائشة.
ربما تكون علاقتي به عشقا ومحبة ، لاني اصبحت لا اطيق الابتعاد عنه كثيرا..شكوت له همي..
كان اول انسان يعرف كل شئ عني .
مارست معه ذاكرتي خيانة البوح بمكنوناتها .حدثته انا نفسي عن كل شئ، لم اخف عنه شيئا، لان ذاكرتي كانت لن تخفي عنه أي شئ. وها انا او ذاكرتي الخائنة المريضة تشي لك بكل شئ ، كل ما تملك، ذاكرتي مريضة بشئ اسمه الثرثرة..
اردت التعرف على ساكن القبر اكثر من أي شئ ، بلغت في جيرته سنوات طوال واعواما لا حصر لها ، تمنيت لو انه كان حبيبي انا وليس صاحبة غصن الياسمين..
اسأل نفسي بهدوء واسأل ساكن القبر.
لماذا ما زالت مصرة على زيارتك؟
هي ما زالت حية على قيد الحياة فلتختر انسانا اخر ، انا ميتة منذ هروبي من نفسي يوم اعلنت تمردي على دار الايتام وهربت ،وهو ميت برصاصة طائشة..نحن متجاوران منذ الابد..
انه لي....
سأطردها من المقبرة، لن اسمح لها بعد اليوم ان تأتي وتزور قبره..سأرمي غصنها الياسميني خارج اسوار المقبرة .اليست المقبرة عالمنا انا وهو..انا اعيش معه ليلي واغلب نهاري ، اما هي فانها تأتي اليه كل اسبوع ساعة ، انا اولى به منها..سأطردها من عالمنا..
جاءت لساكن القبر الخامس سيدة في خريف العمر. جاءت وخطواتها تقطر دمعا. تقدمت نحو قبر حبيبي وجلست على شرفتنا، بكت ، بكت كثيرا دون ان تحاول مسح دموعها..
يقولون ان الدموع تحرق الميت..
تقدمت نحوها وقلت لها:
_ انك تحرقين الميت بدموعك..
نظرت الي مستغربة وقالت:
-انه ولدي .انه ابني وانا لا احرق ابني، دموعي تبلل قبره وترطب روحه. دموع الام رحمه.
تراجعت الكلمات في فمي، لم ادر ماذا اقول لها..لا استطيع ان امنع اما تبكي وليدها.
قلت لها:
_ الله يرحمه، اطلبي له الرحمة.
قالت:
- كنا نعد العدة لزفافه قبل موته بقليل.
تحركت في نفسي الغيرة .حتى انت تريدين تذكيري وتذكيره بمن كان يعشق..
اللعنة تصب فوق راسك ورصاصة طائشة تطول قلبك يا صاحبة غصن الياسمين

قالت:
-كان يرفض الزواج من ابنة خالته ، ابنة اختي، عملنا المستحيل حتى اقتنع.
اتكون صاحبة الياسمين ابنة خالته ؟ ولكنها قالت انه حبيبها منذ مدة.
قالت امه:
- بعد ان وافق على الزواج من ابنة خالته، ارسلنا لهم نطلب الموافقة.. دبرنا الامر انا واختي ، كانت على وشك الحضور من اجل الزفاف، لكن رصاصة عمياء حرمتني الفرحة به..
-وهل جاءت ؟
- لا..
- لا يوجد نصيب.
كان سيترك الفتاة الياسمينة.
فرحت جدا لانه لم يكن يريد الزواج منها، ان قلبه خال من الحب . ترك حبها قبل ان يقتل لصالح ابنة خالته، او لصالحي. هو الان لي ، سأطردها الاسبوع القادم لانه لا يريدها..هو لي.
لكنه يعرف كل شئ..
يعرف قصتي ولن يقبلني حبيبة له، فانا لست بكرا وذاكرتي وشت له كما تشي لك الان بكل تفاصيل قتلي..
انتم ترفضون فكرة الرجل الاخر حتى وان كنتم امواتا، ترفضون الرجل الاخر وان كانت المرأة مظلومة مثلي، لا حول لها ولا قوة.
وضعت والدة ساكن القبر الخامس في يدي نصف دينار وقراءة الفاتحة وغادرت عالمنا ودمعتها تبلل خدها.
هذه النصف دينار مهري..
نظرت اليها وتأملتها، انها مبلغ متواضع بالنسبة لها، ربما ، لكنه كبير بالنسبة لي، نصف دينار عن روح ابنها صدقة له وصداق لي..
فرحت جدا..
خرجت من المقبرة كأم تبحث عن وليدها الضائع ، سرت في شوارع المدينة، بحثت عن شجرة ياسمين .
كان الوقت عصرا والشمس تميل خجلا نحو الغروب، وجدت شجرة ياسمين ، وصلتها من خلال رائحتها ، سرقت غصنا ابيض، سرت احمله كطفل ولدته واخشى عليه اشعة الشمس..
سرت مسرعة حتى دخلت المقبرة، جلست بين يدي ساكن القبر الخامس ، نظرت في تأمل الى مكان رأسه، قدمت له غصن الياسمين ، فرحت بحبي ، حبي الاول، شعرت به يبتسم لي..
قلت له:
- كل مساء احضر لك غصن ياسمين..لن اسمح لاي مخلوق ان يقدم لك غصن الياسمين ، انا وحدي صاحبة هذا الحق، سارمي كل الياسمين خارج المقبرة الا غصني فانه لك وستقبله مني.
بت تلك الليلة فرحة بتقديم زهرة لحبيبي وبصداقي الاول.
حملت صداقي في يميني وانطلقت بمعدة فارغة، تجولت في شوارع المدينة كلها، ابحث عن طعام، كل الطعام كان امامي لكني اريد ان انتقم منه لاني حرمت منه كثيرا..بعد تعب اشتريت ما اريد من الطعام والشراب واكلت بشراهة ، كررت الانتقام من الاكل عدوي الاول او الثاني او الخامس لا ادري فاعدائي كثر بدءا من الليل والرحيل المتواصل والصاروخ الاعمى الذي قتل ابي

وامي ومـرورا بـدورتي الـشهرية ودار الايتـام والرصاصـة الطائـشة التـي قتلـت ساكن القبر الخامس والرجلين وحبيبة ساكن القبر الخامس...
ارتفع اذان العصر ، تذكرت شريكتي في العذاب فتاة المسجد الحـسيني ، توجهت اليها، راتني ولم تعرفني ، عرفتها من نظـرات عينيهـا، كانـت جميلـة جدا بيضاء البشرة ، تقـدمت اليهـا ورميـت بقـرش واحـد فـي حـضنها، لـم تميـز فقري من غناي، دعت لي بالرزق والزوج الصالح ...
قلت لها:
-انا صاحبة القرش.
قالت جاهلة معنى صاحبة القرش:
-كثر خيرك.. الله يرزقك.
قلت لها:
-الا تذكريني؟ انت اعطيتني قرشا قبل ايام.
تفحصت عيوني وتأملت حزني وقالت:
- تذكرتك.
قلت لها:
-اريد ان اعمل مثلك.
- لا تستطيعين، هذه المناطق محجوزة وخطرة.
-لكني اريد طعاما.
اظنها احست بجوعي.
قالت:
- افضل عمل لك التجوال فـي الـشوارع ، لكـن احـذري اولاد الحـرام والرصـاص الطائش.
-الرصاص الطائش.
- نعم الرصاص الطائش .جو المدينة ملـيء بالرصـاص الطـائش وشـوارعها تعـج باولاد الحرام.
-وانت الا تخافين من اولاد الحرام والرصاص الطائش؟
- انا اعرف كيف اهرب من ا لرصاصة في وقتها، اما اولاد الحـرام فانـا اعمـل مـع من يحميني منهم
لم افهم مغزى كلامها لكني اردت تحذيرها مما وقع لي

- لكنك جميلة جدا وعليك خوف
- الشوارع علمتني، اصبح التشرد صنعتي
- اليس لك اهل
- لي الله!

عدت الى المقبـرة احمـل فـي يـدي بـضعة قـروش. عـدت مـسرعة الـى القبـر الخامس.. حملت معي زادي وزوادي ، وضعته بالقرب مـن القبـر، طرحـت عليـه السلام، عدت مشتاقة للجلوس عند رأسه .
اخبرته بوصية زميلتي(احـذري اولاد الحـرام والرصـاص الطـائش..المدينـة مليئـة بهم.).

-12-
بدأت نفـسي تقـذف بامعـائي مـن نفـسي، جـسدي الـصغير اصـبح لا يتحمـل معدتي ، كل شيء في داخلي اصبح في متاهة .

شعرت بأني لست انا، وان حالتي تغيرت، جسدي يذوي ويهرب الى الموت، لكن المقبرة تخافني وقد تهرب مني او قد تتنكر لي لاني لم اعد بكرا، وهذا الامر يعد جريمة، جريمة نكراء حتى لو كان الامر ليس بيدي فهو امر استحق عليه الموت، فالعار لا ينظفه ولا يغسله الا الموت.
شئ ما في داخلي يتكون، شئ ما في بطني يتخلق، يأكل من جسدي ليكبر ، شئ في بطني بدأ يطاردني واطارده، يحاول ان يشعرني ويجعلني احس به:
-(انا موجود)
لم تكن لي خبرة في هذا الامر ، فامي لم ترزق باطفال غيري ، كان ابي يمازح امي ويقول لها:

- اذا لم تحبلي بولد سأتزوج عليك.
- لكن امي تعلم ان الامر ليس بيدها.

كانت تقول له:

- الامر بيد الله وحده.

اذكر ونحن في دار ايواء الايتام، وكان الوقت عيد الام، حفظونا مسرحية ، المسرحية عن الام، وكلنا بلا امهات، لفوا بطن احدى الفتيات ومثلت دور الام التي يقتلها طفلها عند الولادة.
الطفل يقتل امه ، وهل من الممكن ان تقتل الام طفلها خاصة اذا كان الطفل بلا اب، ومن الاغتصاب
(انها جريمة يحاسب عليها الشرف).
قلت لنفسي الامارة بالسوء وشيطاني الوسواس الخناس.
انها جريمة ،جريمة ان اتخلى عن شريكي في انفاسي ودمي ولحمي ودموعي.
لكن بقاءه في بطني الصغيرة جريمة كبرى وجريمة بشعة لن يغفرها احد، حتى انت ايها الساكن في بطني ورحمي لن تغفر لي، وربما تقتلني يوما ما لاني لم احفظ شرفك ، شرف امك.
قد تفهمني الان يا طفلي الذي اظن انني لن اراه، لكنك بعد ان تكبر لن تفهمني وعيون الناس تناديك سرا وعلانية:

- (ابن الحرام.

اود لو اقبلك قبل ان اقتلك، أود لو اضمك قبل ان اسلمك للموت.
لا تنظر الي، لا اريد ان تراني عيناك الجميلتان كعيون امك .
اني ارى رأي العين اني اذبحك.
هل تقول لي:
يا امي افعلي ما تؤمرين ستجدينني ان شاء الله من الصابرين.
اني كهاجر اسكن في واد غير ذي زرع ، اسكن في مقبرة وفي احشائي وليدي الذي تحدثني نفسي ان اذبحه ،، اني ارى في اليقظة اني اذبحك.
-يا امي افعلي ما تؤمرين ستجدينني ان شاء الله من الصابرين.
لكن الشيطان الذي يأمرني با بني وليس الله.
انا في مقبرة غير ذات زرع ولا ناس ولا حياة. مقبرة ليس بها حسيس ولا انيس ولا زرع ولا ضرع.
حاولت قتله وهو موجه وجهه للارض وليس للسماء، جبينه ملاصق للارض.
اصبح يوما عن يوم يكبر واصبحت ساعة عن ساعة ابحث عن ذبح عظيم افدي به نفسي واتخلص به من عاري.

عاري يعني جنيني وحملي يعني فضيحتي ونقل ما جرى في تلك الليلة امام كل المشاهدين في بث حي ومباشر.
آه يا جنيني
لو انك تختار طريق الموت وحدك، لو انك في ليلة من ليالي العتمة التي اعيشها تلتف حول المقبرة كالعاشقين تلتف يد احدهم على خصر الاخر، لو انك في ليلة ليلاء تنزل طوعا وتقتلني معك حفاظا على شرفك.
اتكون يا طفلي غاضبا مني؟ هل انت غاضب مني . امد يدي على بطني الصغير فأشعر ان غثيان الارض ، غثيان باطن الارض يحاول ان يقذفني حمما بركانية الى الاسفل.
انه الغثيان
احس به يقلب امعائي ، استنجد بك يا طفلي الذي لم تخلق عيونه، الحمد لله انك بلا عيون ، مازلت عديم الرؤية فلن تراني وانا امد يدي الى رقبتك واخنق فيك الحياة.
اصبحت يا طفلي الذي تفرح به كل الامهات الا انا، اصبحت مصدر عذابي بدلا من ان تكون ثمرة لذاتي وحبي.
هل اصبحت مجنونة؟
كيف اكون اما يمتلئ قلبي بالحب والحنان وعاطفة الامومة واكون في نفس الوقت سببا في موتك وقتلك.
جاء الشهر الثاني، اوعلى راي النساء الحوامل، دخلت الشهر الثاني من غثياني جاء بالفرج، صحوت على نفسي التي تكاد تموت حزنا على خطئ لم ترتكبه واذ بقطعة لحم صغيرة تخرج من احشائي، لم تكن دورتي الشهرية التي انقطعت منذ تلك الليلة التي اغتصبت فيها طفولتي،كانت دماء كثيرة، وكانت قطعة لحم لم تتكون بعد، عيون واذان وايدي، اذن لم تسمع وتعشق قبل العين والعين اذا سمعت دقات القلب تكلمت، تكلمت قتلا او حبا.
كان الفرج في هذا اللحم ، وبكيت كثيرا بكيت لان الله خلصني من عار كان سيطوقني مدى الحياة وبكيت كما النساء تبكي حزنا على موت جنينها.
حفرت لجنيني قبرا باصابعي ، حفرت القبر قرب ساكن القبر الخامس، حفرت قبرا صغيرا بالقرب من مكاني ليظل امام نظري ويؤنسني في وحدتي ووحشتي ويؤنس المقبرة مني.
لففته بخرقة بالية، الفقراء ليس لهم الا الخرق البالية، لففته ودسسته في التراب وأدا، وقرات على روحه التي لم ينفخها الله فيه قراءة الفاتحة ، ترى الى من ذهبت روحه وفي جسد من حلت.
**
-13-
صباح الخير.
قالت لساكن القبر الخامس دون ان تراني.
كان يوم خميس، جاءت تحمل بيدها غصن ياسمين، دخلت المقبرة واتجهت صوب القبر الخامس، لم تتأخر عن موعده لحظة، دقيقة جدا في موعدها كل خميس، كانت جميلة جدا تحمل عينين مليئتين بالبريق، بريق يدل على الحب والوفاء محاط بحزن دائم.
جلست جلسة مودع، مسحت التراب الذي يضم ساكن القبر الخامس، قبضت قبضة من التراب ، مسحت بها وجهها، لثمتها، لم تكن تشعر بي، وضعت غصن الياسمين عند رأسه وقرأت الفاتحة.

غـضبت جـدا ، امـتلأت غيـرة، ضـربت الارض بقـدميّ واخرجـت صـوتا، اردت ان اخرجها من لحظة العشق التي تعيشها مع ساكن القبر الخامس، احسـت بـي وشعرت بوجودي، التفتت الي ، راتنـي غاضـبة، ابتـسمت فـي وجهـي ، كانـت عيونها متأكدة من عشقي ساكن القبر الخامس، لكنها هذه المرة اصرت علـى اني احبه.
قالت لي:
- اجلسـي
واشارت بيدها الى يسار القبر.
رميـت بجـسدي قربهـا وزاحمتهـا فـوق رأس سـاكن القبـر الخـامس، حركـت جسدها كأنها تخلي لي المكان.
قالت:
- سـيكون هذا اليوم اخر زياراتي للمقبرة.
سألتها بفرحة ظهرت على وجهي واحرفي:
- ولماذا؟
- سـيكون هذا الغصن، غصن الياسـمين اخر عهـد لـي بالياسـمين، لـن اقدمـه لاحد بعد اليوم ولن اقبله من احد.
- لماذا؟
- لكن لي طلب عندك.. طلب بسيط.
- ما هو؟
- احفظي القبر من الحجارة والاشواك والاعشاب الـضارة ورطبيـه بالميـاه كـل يوم ، كنت ارطبـه بـدموعي كـل اسـبوع، وارجـو منـك اذا اسـتطعت ان تخـصيه بالفاتحة ، ان اسـتطعت كـل يـوم تلاوتهـا فـافعلي والا فكـل خمـيس، وارجـوك، ارجوك ان تحضري لقبره غصن ياسمين كلما سنحت لـك الفرصـة فانـه يعـشق الياسـمين.
- لكنك لم تجيبي على اسئلتي.
-وما هي اسئلتك؟
- لماذا اخر مرة تريدينها واخر زيارة واخر عهدك بالياسمين؟
مسحت دمعة نزلت من عينيها الجميلتين، دمعـة وحيـدة، مـسحتها وامـسكت بغصن الياسمين وقالت.
- تعاهدنا قبل خمس سنوات ان لا نقدم الياسمين او نقبله من احد سوانا.
- لكنك تطلبين مني ان اقدمه له.
- لانك تحبينه ربما اكثر مني.
- ولماذا ستتركينه؟
- الخميس القادم سيكون موعد خطبتي لرجـل اخـر. سـيكون مـساء الخمـيس القادم اول يوم ابتسم فيه لرجل غيره.
ضمت حفنة تراب من فوق القبر، ضمتها بين يديها، بكت حتى بلل الدمع حفنة التراب، بكت كثيرا لدرجة ان دموعهـا غيـرت ملامـح وجههـا، بكـت بـشدة لـم ار مثلها بكاء حتى اني بكيت معها وعليها.
فجأة توقفت عن البكاء وقالت:
- هذه رسائله لي، لم يطاوعني قلبي على حرقها ولا اسـتطيع ان اصـطحبها معي لبيت الرجل الذي ساصبح زوجته، اظن ان خير من يحفظها هو انت، هي امانة في ذمتك ولك حق التصرف فيها، ان شئت ابقيهـا معـك وهـذا مـا اظنـه ،

وان شئت قطعيها اربا اربا وارميها في مهب الريح وان شئت احرقيها واجعلي منها رمادا يتطاير في السماء ويعانق روحه الطاهرة، هي ملك لك الان.

نظرت الي تستعطفني وتستسمحني، فهمت انها تريد مني ان انصرف ، شعرت بها تريد الخلوة بساكن القبر الخامس. للمرة الاخيرة.

ابتعدت قليلا بحيث ظلت اذني عندها .

سمعتها تقول له:

-وداعا ايها الحبيب الغالي الذي ما تأخرت عن موعدي معه يوم خميس، لم اجرؤ يوما من الايام بان اتأخر عن موعدي معك لحظة واحدة مع انك كنت تتأخر كثيرا، وكنت تنسى ان موعدنا يوم خميس من كل اسبوع، ولم اعاتبك على تأخرك، بل كنت اظهر لك كل الحب والسعادة لانك وصلت سالما،ولكنك وانا متأكدة، لم تنسني ابدا ، لكني كنت احافظ على موعدك كما احفظ حبك.

لكني اليوم، اليوم جئتك مودعة، منذ سبع سنوات وقت كنا في الصفوف الثانوية لم اقل لك وداعا ولم اسمعها منك ابدا، مرة واحدة قلت لك وداعا غضبت جدا وقلت لي:

- لا تقولي وداعا، قولي الى اللقاء.

لكني ايها الحبيب الذي كان كل يوم خميس يحمل لي معه غصن ياسمين، سبع سنوات لم يغب الياسمين من بين يديك ، واليوم جئتك بعد ان حملت لك الياسمين سنوات موتك، جئتك اليوم بآخر غصن ياسمين.

جئت لاقول لك وداعا وليس الى اللقاء، وداعا ايها الحبيب الذي ما ودعني ولم يأخذ برأيي ككل المرات، لم تشاورني لحظة قررت ان تموت برصاصة طائشة ، كنت تشاورني وتأخذ رأيي فيها، لكنك عند موتك ، عند موتك الذي جاء يوم سبت أي بعد يومين من لقائنا ، يوم قلت لي ستصلك رسالة خلال اليومين القادمين.وكنت تعرف اني سأرافقك في رحلة موتك.

الان ، الان وفي هذه اللحظة الاخيرة اقول لك وداعا يا اعز الناس على قلبي، اقول لك وداعا لا لقاء فيه .

وداعا ايها الحبيب، وداعا ورحمة الله تتغمدك وتظلك في قبرك.

تركت المقبرة مسرعة، خرجت ولم تستجب لندائي، كنت اريد ان تكلمني عن عشقها، كنت اريد ان اواسيها بزوجها القادم، لكنها لم تسمعني خرجت وفي اثرها روائح الياسمين ، كانت ترافقها الى بيتها الجديد.

اسرعت بفتح الرسائل التي كان ساكن القبر الخامس يكتبها لها، شممت رائحة الياسمين فيها، كان خطه جميلا جدا، رتبتها حسب تاريخها قرأت فيها حكمة بكلمات حكيمة اخرجتني من مكاني الحالي قرب القبر الخامس الى مدينة حلمت بالعودة لها ومدرسة بكيت عليها كثيرا.

قرأت:

(خير مكان هو وطني ولا خير في وطن بلا اسرة)

تقطع قلبي على اسرتي، لكني بلا مكان وبلا وطن وبلا اسرة، اسرتي في المخيم، كانوا يريدون ان يصبحوا اسرتي، لكني تركتهم خوفا عليهم من نفسي.

وكتب لها:

(بالامس بعد ان تركتك وخرجت من خميسنا ودخلت في خميسهم هم، كانت في عمري وكانت جميلة ، لكنك اجمل منها ومن كل النساء.

شعرت ان خالتي تحاول ان تحشرنا معا في أي زاوية، لا يهم المكان، المهم ان نكون فيه معا.

فهمت ان هناك مؤامرة تدور في بيتنا بين امي وخالتي، لكني اموت ولا اكون لغيرك.)
وكتب لها في رسالته الاخيرة:
(ربما تكون هذه رسالتي الاخيرة، ايتها الياسمينة الشامخة علوا بالحب نحو السماء، ابي الذي احبه كثيرا تدخل في معركتي مع امي وحسم الامر لمصلحة امي وخالتي وابنة خالتي، اتصلت امي امس بخالتي تلفون تخبرها ان الامور جرت على ما يرام وان الولد وافق اخيرا، وطلبت منها ان تحضر هي وزوجها ِوابنتها باسرع وقت من اجل الخطبة والزواج.
انا احب ابي كثيرا واخجل ان انظر في عينيه، وابي يحبني حد التضحية، لكنه هذه المرة وقف الى جانب امي، كانت امي مصرة على زواجي من ابنة اختها وهددت ابي بترك البيت اذا لم يتخذ امرا لمصلحتها.
انا اخجل من ابي كثيرا ولا تطاوعني نفسي ان اقول له: لا..
ياسمينتي:
الاسبوع القادم سيكون موعد زفافي من ابنة خالتي، وربما لا يكون أي شيء في الدنيا، لا تغضبي مني ولا تبكي كثيرا، ولا تظني اني تركتك مودعا بلا لقاء، كنت اتمنى لو تكوني معي في كل ظروفي لكني هذه المرة ايتها الغالية سأكون وحدي، وربما لا يكون أي شيء في الدنيا سوى رصاصة طائشة.

**

-14-

قالت امي:
كان ابوك من اجمل شباب المخيم.
وقالت بعد ان انهت عقد ضفيرتين طويلتين من شعري:
- انت تشبهين والدك كثيرا ، الانف نفسه ووسامة والدك وتشبهينني بلون العيون و استدارة الوجه والشعر، حتى الشعر فانت تحملين استرسال شعر والدك وكثافة وطول شعري.
اصبحت امي امرأة بين ليلة وضحاها، كانت طفلة تلعب تحت شجر اللوز وتعلمها امها تطريز الثوب الفلسطيني عندما اصبحت سيدة ، هذا الوقت كان الحد الفاصل ما بين الطفولة والمرأة. لم تكن تدرك ماذا يعني زواج سوى انها كانت تلعب مع بنات المخيم في سهرات الاعراس . وتحت شجرة اللوز اصبحت امي امرأة ولها رجل .
لم تكن امي امرأة ناضجة وقت خطبها ابي، لكنه فاز بها في منافسة لم تكن للعواطف والمشاعر دور فيها، تعرض لها، كما يقولون، ابن عمتها وهو من شباب المخيم المميزين يريد الزواج منها ، وكان احق من ابي كما قالت امي لانه من اقاربها، لم يكن لامي كما اخبرتني أي دور في المفاضلة ما بين ابي وابن عمتها، امها، جدتي، هي التي اختارت ابي.
وقالت امي:
- ان جدتك وعمتي لم تكونا على وفاق.
وقالت امي:
- نتيجة لهذا الخلاف فاز ابوك بي.
وقالت امي ان امها اخبرتها بأمر خطبتها من ابي وهي في سن الخامسة عشر او اقل بقليل.

وطبقا لرواية امي فقد كانت في يوم ذي حرارة تكاد شمسه تلامس الارض وتقبلها، كانت تطرز ثوبا تحت شجرة لوز في البستان الذي يعملون فيه.
وقالت امي انها رأت ابي للمرة الاولى ، عرفتها فيه عمتي التي كان لها دور في موافقة امي.
- حتى لو عارضت ورفضت فاني سأتزوج من ابيك.
هذا ما كانت تردده امي دائما.
وكانت تقول لي وهي تدهن شعري بزيت الزيتون:
- الزواج ليس للمرأة فيه حيلة ، زواجي لم يكن بيدي بل بيد ابي وامي ، الزواج عندنا ايجاب العريس احيانا وهو الذي لم يختر عروسه، المهم ان يتزوج من أي امرأة مهما كانت، فالام تختار والاب يوافق، الزواج عندنا ايحاب العريس وقبول اهل العروس.
وقالت امي:
- لم يكن يسمح لنا الجلوس معا، كنت ووالدك نسترق النظرات كعاشقين محرم عليهما العشق.
كان مسموح له بزيارتنا كل اسبوع ساعة ويجلس في مكان بعيد عني في الغرفة التي تضم ابي وامي واخواني وامه واباه.
لكني بعد ان رأيت والدك واصبح نصيبي، وكان شابا وسيما، كنت اختلس النظرات اليه اختلاسا ، وعندما كانت عيوني تتلاقى بعيونه كنت اغض الطرف خجلا.
مرة، وفي يوم من ايام قطف ثمار الزيتون ، وكانت البساتين مليئة بالعاملين بقطف الزيتون،كان يخرج كل من يسكن المخيم الى قطف الزيتون ،وكان العمل يستمر منذ الساعات الاولى للفجر ،يخرج الجميع بعد صلاة الفجر ولا يعودون الا لصلاة العشاء، كان المساء يقترب من الارض ، وكانت اواخر ايام ا لقطاف، فكان لا بد من العمل بجد ونشاط وسرعة من اجل انهاء العمل، كان الليل اقبل واقترب من الارض، وكان والدك يقترب من الشجرة التي كنت اعمل فيها، جاء مع اخته لمساعدتنا بعد ان انهوا اشجارهم، امي علمت بهذه المؤامرة لكنها تجاهلت الامر، اقترب اكثر من الغصن الذي اعمل فيه وبدأ يقطف حبات الزيتون وقال لي:
-هذه الاصابع تستحق الذهب لا قطاف الزيتون.
تصبب العرق من جبيني وتجرأت على نفسي وقلت:
- الزيتون اغلى من الذهب.
تجرأ اكثر وامسك بيدي فشعرت برأسي بركانا ينفجر وتصبب العرق من راسي، وتلونت وجنتي ، وارتفعت دقات قلبي، كدت اسقط لولا الخوف من افتضاح امري، سحبت يدي وهربت الى شجرة اخرى بعيدا عنه.
ظل ابوك طوال فترة زواجنا يذكرني بتلك الحادثة وبهروبي منه وكلما ذكرني بها احمرت وجنتاي وكأنها اليوم، كنت حتى بعد مرور سنوات زواجنا اتهرب من هذه الحادثة بان اذهب الى المطبخ.

**

-15-

كانت رسائل ساكن القبر الخامس اكثر من ثلاثين رسالة سجل فيها خطواته الغرامية مع ياسمينته خطوة بخطوة ، كنت اقرأ رسائله وابكي، ابكي حرقة تارة وتارة اخرى وجعا وغيرة من حبيبته وتارة حسرة عليه.

تألمت كثيرا لحالته فقررت ان اذهب الى عملي اليومي الذي اصبحت اتقنه ، متسولة شرعية، احمل شهادة في التشرد والتسول، اجوب شوارع المدينة من اجل عشرة قروش، ممنوع على واحدة مثلي ان تجلس امام المساجد او الاشارات الضوئية لانها محجوزة .
المكان الوحيد المسموح الجلوس فيه للراحة وليس للتسول هو عند الطفل ماسح الاحذية ، البويجي، كان في نهاية الطفولة، يعمل منذ ساعات الصباح الاولى ، يأتي من المخيم مع اطلالة الشمس ويعود والليل يعلن قدومه، يرمي به باص المخيم صباحا مع صندوقه المليء بطلاء الاحذية، يحمله على كتفه.
من موقف الباص الى المكان المخصص لعمله على الرصيف ، مرة كشف لي عن اصابة كتفه ، رأيت علامة حزام الجلد الذي يحمل فيه الصندوق مؤثرة في كتفه من اثر حمل الصندوق المتواصل، الصندوق الذي رافقه وسيرافقه مدى الحياة فهو لا يملك مهنة الا الصندوق ، يرسم بالوانه لواحات جميلة على احذية المارة كما اخبرني يوما ونحن نتناول طعام افطارنا المكون من الخبز والشاي.
يميل الى السمرة ، قال لي مرة انه ولد في المخيم، اما اهله فأتوا من بيسان، وقال لي انه يعمل ليعيل عائلته وان والده اجبره على ترك المدرسة من اجل تخليصه من المشاكل. واخبرني ايضا ان والده هو الذي اختار له هذه المهنة التي لا يحبها وهي تحبه .
- الحياة صعبة وتحتاج من الجميع التعب، كنت متفوقا متوسطا في دراستي واستطيع ان اواصل تعليمي واستمر حتى الجامعة لكن ابي اصر على اخراجي من المدرسة والعمل في هذه المهنة.
ارمي بجسدي قربه كل ظهيرة واراقب الاحذية وهي ترفع في وجهه الاسمر الطفل، كانت احذية كبيرة تأتي اليه متسخة باتربة الشوارع وهمومها ، احذية اكبر من الطفل ماسح الاحذية حجما واحيانا عمرا، احذية كبيرة تحتاج الى عمل مضن، اشعر بهذه الاحذية تجر اصحابها وتسحب لابسيها الى(البويجي) من اجل الاستراحة، فهي تمشي باستمرار وتجوب الشوارع بلا توقف قاطعة مسافات كثيرة وتحتاج بعد تعب الى استراحة ، اسميناها انا والطفل البويجي استراحة الاحذية، تسحب اصحابها سحبا من اجل الاستراحة بحجة المسح والتلميع.
مرة جاءه حذاء ، عفوا جاء شاب ينتعل حذاء تغيرت ملامحه ويريد تلميعه ، كنت اتناول افطاري معه قطعة خبز وكأس من الشاي، قال له الشاب:
- ارجوك اجعله يلمع ، ساذهب اليوم الى الجامعة.
ضحكنا من منظر الحذاء وحزنا لمنظر الشاب، تبدو عليه علامات الفقر الشديد ويظهر ان حذاءه كان لوالده، مشى فيه اكثر من مائة شارع وشارع.
حاول صديقي البويجي تلميع الحذاء بكل الخبرات التي يمتلكها لكنه عجز عن جعله لامعا واكتفى بالاعتذار . ورفض ان يأخذ اجرته بحجة انه لم يلمعه بشكل ممتاز، لكنه قال لي انه رفض الاجرة لانه شعر ان كل ما يملكه الشاب هو اجرة التلميع.
صديقي البويجي يعرف كل المارين من الشارع ويروي بذاكرته كل الاحداث التي تقع يوميا امامه ، ويعرف ، بل هو متأكد ان نهايته ستكون في هذا الشارع من رصاصة طائشة او من سيارة مسرعة او من حذاء كبير يدوس عليه عندما يلعلع الرصاص في كل مكان ويهرب اصحاب الاحذية الكبيرة ويدوسون كل شئ امامهم ، الاخضر واليابس.

ومرة قال لي:
_ هل تعتقدين ان الاحذية لديها ولاء ووفاء؟ .
- الاحذية !؟
- نعم الاحذية، انا امسح اكثر من نصف احذية المدينة وهي تعرفني ، فهل يأتي يوم ما يدوسني حذاء لمعته ومسحته اكثر من مرة او يقذفني به صاحبه،، لا اظن ذلك، للاحذية وفاء كما الكلاب وفية فان الاحذية وفية، الا ترين معي انها تتحملنا سنوات وسنوات ونحن ندوسها ونسير فيها من شارع لشارع ونقذف بها الحجارة ونعرضها لمسامير ومطرقة الكندرجي وتساعدنا في المعارك الجانبية كأسلحة يقذف بها الخصم من بعد ، وهي صامته، ان الاحذية وفية اكثر من الكثيرين..
- هل كان يربط بينك وبين ماسح الاحذية علاقة حب.
- لا
- لكني ارى انك معجبة به جدا.
-انا الان لا ادري اين مكانه، هل هو حي ام ميت ، هل قتلته رصاصة طائشة ام داسته الاحذية الكبيرة الضخمة ام انها كانت وفية له، لكني اقول لك لم احب احدا في حياتي سوى ساكن القبر الخامس وانت.
-والبويجي ؟!
- كنت اعشق فيه اخوته، لابد للانسان من اخ حتى لو لم تلده امه، البويجي كان اخي ، هو كان مدركا لذلك، لم يراودني عن نفسي حتى بنظرات عيونه، كان ممن شردتهم الحروب.
- انت تعتقدين ذلك
- ربما ، لا يعلم ما تخفي الصدور الا الله
-الم تبحثي عنه.؟
- سألت عنه مرة واحدة لكن المخيم اتسع هذه الايام واصبح كبيرا ولم يعد سكانه يعرفون بعضهم البعض كالسابق عندما كان صغيرا.
لم اودعه عندما عدت الى المخيم، لاني قررت العودة فجأة، لم اكن من الاوفياء ، الحذاء اوفى مني ، لم اودعه لاني لم اجده وقتها ولم احاول البحث عنه، ربما تكون مني قلة وفاء لكني كنت اهرب الى الخيم.
تركته ظهر اليوم بعد ان قررت العودة للمقبرة والعودة مرة اخرى الى رسائل ساكن القبر الخامس، اريد قراءتها مرة اخرى، ثانية وثالثة علي اجد شيئا لي ولو باحرف صغيرة كتبت بين السطور.
اريد قراءتها على نور الشمس، فالعتمة تمنعني من النظر في الحروف ،ودعت صديقي ماسح الاحذية وكنت اخبرته عن امر الرسائل لكني لم اخبره عن الرجلين، لا ادري لماذا هذه المرة خانتني ذاكرتي او انها وقفت معي وقفت الى جانبي ولم تخبره بأمر الرجلين .
-16-
عدت الى المقبرة مبكرة هذه المرة ، عدت اليها والوقت بداية النهار، دخلتها عند صلاة الظهر، على عجلة من امري مشتاقة لقراءة الرسائل ، و فرحة بتخلصي من صاحبتها وتفرغ قلب ساكن القبر الخامس لي وحدي، كنت صغيرة، طفلة بدأت حياتها الغرامية مع قبر.
دخلت الى المقبرة واذ بضيوف حلّوا علينا، رجال يحملون زائرا جديدا ، او زائرا مقيما معنا ، حفروا له القبر او البيت بزاوية من زوايا المقبرة، بعد ان دفنوه وانصرفوا .

جلس بقرب القبر رجل وامرأة ، كانا في اواخر العمر، جلسا طويلا والبكاء ثالثهما، المرأة بكت اكثر، كان الزائر الجديد ابنتهما الوحيدة ، ماتت بمرض عضال لم يكتشفوه الا بعد فوات الاوان عندما سيطر على خلايا جسدها وقتلها.
هذا ما قالته لي امها عندما همت بالانصراف.
**
-17-
شعرت في تلك الليلة التي عشقت فيها ساكن القبر الخامس ودخلت نسمات حبه في اعماق قلبي ، شعرت بأشياء تتغير داخلي، اشياء لم اعتدها من قبل تتبرعم داخل روحي ، لها عطر الورد وبصيرة نافذة ترى نورا اعتقدت وقتها ان احدا غيري لا يمكن ان يراه، خفقان في قلبي مستمر، احسست بمشاعري تفيض، وتنتشر في كل مكان، مشاعر هائمة وخطوط من نور لا يمكن مسكها، سعادتي الفياضة تكفي ملايين البشر وتفيض عليهم وتنشر الروائح كالياسيمين الذي يحبه ساكن القبر الخامس.
كنت اسمع اصوتا لا افهمها، فقد تعطلت حاسة السمع عندي.
شعرت بروحي تخرج من جسدي في عتمة المقبرة، وشعرت بتحررها من جسدي الذي اصبح لا سلطان له عليها.
ومهما تكن المشاعر التي اعيشها فلن يتذوق بشر سعادتي التي اتذوقها في هذه الليلة.
قلت لساكن قلبي وساكن القبر الخامس
- انت اول حب تعيشه فتاة مراهقة ومرهقة قتلها رجلان بلا ضمير، انت حبيبي وعشيقي الذي بتّ اعيش له واحلم باحلامه.
اسمعك في قبرك ترفضني، واسمعك احيانا تحبني، لكنك ستظل حبيبي لاني لا استطيع ان احب غيرك، انت في قبرك وانا في مقبرتي ولن اقبل حججك التي ترفضني بسببها ، لن اقبل إيماءاتك الواهية، لن ادعي اني اضحي بك لا، لن اقبل غيرك حبيبا لي حتى وان صحت باعلى صوتك ترفضني..لن اقبل.
شعرت بنفسي مجنونة، اخاطب قبرا واسمع صوت ساكنه، ايكون ساكن القبر الخامس محدثي ام اني متوهمة، اجننت ولكن، الم يتحدث القس ميلانصو الى رأس الحسين بن علي رضي الله عنه.
جلست عند رأس ساكن القبر الخامس وبدأت بفتح الرسائل ، لكني توقفت فجأة ، شعرت بذاكرتي تتحرك وتتململ، تفكر ذاكرتي بشئ قد يسيء لي، وقد تقتلني ذاكرتي يوما من الايام او اقتلها بحذاء كبير ضخم ، ذاكرتي كشجر الدر ستقتلها القباقيب.
تصر ذاكرتي على قول شئ ما ، تتململ ثانية وتتحرك في رأسي الصغير، تفكر بالاساءة، ولمن تسيء، لي انا صاحبتها ومالكتها، ليت لها وفاء الكلاب او احذية صديقي ماسح الاحذية.
ذاكرتي تشبه الاطفال في عدم مقدرتها على حفظ الاسرار ، وكما يقولون (خذ اسرارهم من صغارهم) .
ذاكرتي ليس لها اسرار، لا تعرف الكتمان ولا تعترف بخصوصية بعض المعلومات، كل شيء لديها مباح للاخرين، وكل ما لدي وما لديها كتاب مفتوح يقرأ منه من يشاء بلا حساب او سؤال.
شعرت بها تريد ان تتكلم فسبقتها لاحرمها متعة البوح بالاسرار وافشاءها.

قلت لساكن القبر الخامس:
انت ايها الراقد في القبر الخامس القريب من باب المقبرة، صدر المكان للوجهاء ولا يجلس على الابواب الا الفقراء والايتام.
انت ايها الميت برصاصة طائشة اخترعتها لتهرب من وقتٍ وزمن رفضته واعتدى علي ، ليت لي رصاصة طائشة كما لك انت، انت اول من خفق لـه قلبـي واول من تحركت نار الغيرة النسائية عليه.
اتدري ان فوق رأسك ارتكبت مجزرة انسانية بحقي وكنت ضحيتها. كنت طفلة بللتها دماء الدورة الشهرية عندما جاء الرجلان،كانا في سن العشرين, .
لا تغضب لاني اعترف لك بمصيبتي، انا لست عذراء، انا لست بكرا، وخاتم الانوثة، وخاتم العذرية فضه رجلان مسلحان بالحقد والحيوانية، ليتهما ارسلا رصاصة طائشة لتقتلني.
اسمع ايها الميت في القبر الخامس ، انت الان تستشيط غضبا، تتمنى لو انك لم تقتل لتقتلني دفاعا عن الشرف، ولماذا لا تقتل من اغتصبني ولماذا لم تحمي طفولتي يوم اغتصبني الرجلان؟
شعرت باني اختنق وانا اسرد لساكن القبر ذكرياتي قبل ان تشي بها ذاكرتي الخبيثة، خرجت من المقبرة ، بحثت عن شجرة الياسمين، بحثت طويلا، امتد البحث ساعات، عدت بعدها بيدين فارغتين من الياسمين ، لم اجدها وكأن الدنيا امحلت من شجر الياسمين .
كان هناك شجرة باسمين وكنت احضر له منها غصنا واحدا كل يوم ، لم اجدها ، سألت عن شجرة ياسمين وجدت من يرشدني الى واحدة اخرى، في اللحظة التي فقدت الامل بالحصول على ياسمينة ، وجدتها اجتثت من اخر عروقها، اقتلعت من تحت الارض .
وصلت الى مكان الياسمينة المزروعة فيه منذ الابد فوجدت عمال النظافة يحملونها بسيارة النفايات.
عدت الى المقبرة حزينة باكية العينين ويداي لا تحملان الا هما.
دخلت المقبرة واتجهت صوب القبر الخامس معتذرا ، لاني لاول مرة منذ عرفته لا احضر له غصن ياسمين وهذا نذير شؤم، فحبيبته لم يأت عليها خميس بدون الياسمين وانا افقده من الشوراع والحدائق.
اقتربت من القبر، ويا للمصيبة ، انها مصيبة كبرى ما حل بالقبر، وجدت القبر الخامس منبوش ولصوص حلوا بالمقبرة ا ثناء غيابي وسرقوا رفات الميت، ايكون هو الذي هرب، اتكون ذاكرتي جعلته يختفي من حياتي .
اول ليلة تمر بدون ساكن القبر الخامس واول لحظة ادخل فيها المقبرة بدون غصن الياسمين.
وقررت بعد ان تأكدت ان ذاكرتي خانتني وان ساكن القبر الخامس لم يتحملني قررت ان اتخلص من كل ما يربطني به، من ذكرياته معي ، ومن رسائله التي كنت احملها كتابا مقدسا .
اخرجت الرسائل من كيسها ، نظرت اليها نظرة عاشق يودع حبيبته، بكيت على فقداني ساكن القبر الخامس ، وبكيت اكثر لاني لا استطيع ان افي بوعدي لصاحبة الرسائل بان احفظها .
بكيت كثيرا ورميت برسائله في اسفل القبر ودفنتها بالتراب.
لم اخن صاحبة الرسائل ،ان رسائلها في المكان الامن وفي المكان الذي يجب ان تكون فيه، انها ميتة الان وحلت في مكان صاحبها الهارب من

العار ، اللعنة عليك ايتها الذاكرة الخبيثة التي تبوحين باسراري بحجة الصراحة والصدق.
هل كنت على حق ام اني اناطح الصخر بقرون من طين ،والناس اليسوا على خطأ ،العالم كله خطأ الدنيا ملعونة وملعون ابو الدنيا.
**
-18-
رأيت الرجلين يحومان حول المقبرة، ميزتهما من كرهي لهما، من الحقد الذي زرعاه في احشائي الصغيرة، من علامات قتل الطفولة التي تعج بها عيونهما.
كان الوقت ضحى، وكان الرجلان يتربصان بي وينتظران الليل المعتم ليرتكبا جريمتهما ثانية، يتربصان بفريستهما، يحومان حول المقبرة ، اختبأت في زاويتها البعيدة قرب قبر الفتاة الجديد، فعلت كما تفعل النعامة وضعت رأسي في الرمال واظهرت جسدي، لم اجد أي زاوية معتمة اخبئ فيها جسدي الصغير، كان باب المقبرة يقترب مني ويمحو المسافة، احاول ابعاد المسافة بيني وبين باب المقبرة، احاول جاهدة اطالتها لكنه يقترب مني.
ايها الليل ظل بعيدا عني لا تقترب مني، ارجوك ايها الليل ابتعد بنجومك الخجولة واقمارك المكسوفة مني، لتظل شمسك ايها النهار ساطعة طاردة العتمات من حياتي هذا النهار فقط.
لا يوجد لي احد يحميني هذا المساء حتى ساكن القبر الخامس هرب مني وانسحب من حياتي ، ليتني كنت مكانك ايتها الضيفة الجديدة على مقبرتنا، ليتني كنت انا الميتة وانت تعيشين حياة سعيدة بين اهلك، فانا لا اهل لي.
اقتربت الشمس من الغرب قليلا وانا اضع رأسي بين القبور مختبئة، تقدمت خطوتين خائفتين وزحفت قبرين فثلاثة قبور، كنت اتسلل للخارج ، وصلت الى القبر الخامس الذي يضم رسائل فقط بدون جثة، اخرجت رأسي الصغير من باب المقبرة وجلت بعيوني التي ترتجف خوفا، نظرت يمينا ثم يسارا لم اجد احدا، هل غادر القاتلان باب المقبرة ام اني اصبحت اتوهم؟ هل غادرا بلا رجعة ام انهما ينتظران حلول المساء وقدوم الظلام والعتمة عدت للقبر نبشته واخرج الرسائل وحملتها.
ماذا افعل يا ربي ، ارشدني الى اين اذهب والى من التجئ وانا لا اعرف احدا. أأعود الى الملجأ ؟ انام في الشوارع ، الشوارع مليئة باولاد الحرام وبالرصاص الطائش، ليت الامر يظل على رصاصة طائشة كنت فرحت بها، لو اني اعرف مكان الرصاص لذهبت اليه بقدمي لكنه احتمال صغير والاحتمال الكبير ان اظل فريسة لاولاد الحرام.
يجب ان اتخذ قرارا بسرعة . هل اذهب الى الشرطة واقدم شكوى؟ سيسألوني عن اهلي وعن المكان الذي جئت منه وليس ببعيد ان توجه لي تهمة الاخلال بالاداب العامة.
يا رب انت الوحيد الذي بقي لي.
فجأة لمعت برأسي فكرة، المخيم، واقاربي . يجب ان اعود الى هناك، انهم اناس طيبون ولن يتوانوا في استقبالي واحتضاني.
عدت الى المقبرة، حملت دفاتر ابي واغراضي البسيطة ورسائل ساكن القبر الخامس، تجولت بين القبور، ودعتها ،وقرأت على ارواح ساكنيها سورة الفاتحة، بكيت جدا حتى احمرت عيناي، جلست عند قبر الفتاة الجديدة ، قرأت لها وحدها قصار السور والفاتحة، اعتذرت منها لاني اغادر يوم حضورها

ولـم اقـم بواجـب الـضيافة، حـدثتها بـسرعة عـن المقبـرة وزوارهـا وعرفتهـا بساكنيها واوصيتها بالقبر الخامس ، وحدثتها من تلقاء نفسي عما حصل لي في هذه المقبرة وودعتها وقرات على روحها سـورة الفاتحـة وخرجـت مـسرعة من المقبرة هاربة خائفة ان يعودا ويمنعاني من الخروج.
سرت في شوارع المدينة كثيـرا ووجـدت اكثـر مـن الـف شـجرة ياسـمين ، لـم تطاوعني يدي بقطف غصن واحـد مـن الياسـمين، لمـن اقدمـه، لـساكن القبـر الخامس الذي هرب مني، وقفت عند شجرة ياسـمين ، شـممت عطـر زهرهـا وبكيت وكانت المرة الاخيرة التي اشم فيها الياسمين.
ذهبت الى صديقتي الجالسة عند المـسجد ، رأتنـي فابتـسمت مرحبـة بي، لم تطردني هذه المرة ولم تحذرني من احد.
قلت لها:
- لن اطيل الجلوس عندك حتى لا اعرضك للاذى.
كأنها عرفت اني جئتها مودعة فقالت:
- ولا يهمك. اجلسـي معي متى ما بدك والى أي وقت بتريديه.
- لا، لن اجلس، جئتك اليوم مودعة.
- ماذا؟ مودعة والى اين تذهبين؟
- ساعود الى اقاربي في المخيم.
_ إلك قرايب؟!
- نعم لي اقارب في المخيم.
- وهل هم طيبون.
- جدا.
فتحت عيونها، لاول مرة ارى عيونها بهـذه الـسعة، كانـت عيونهـا جميلـة جـدا، كانت دائما تمثل انها لا ترى كثيرا.
قالت:
- إلك قرايب طيبين وبتشردي وبتعرضي حالك للخطر ولاولاد الحرام.
- لم اشأ ان اثقل عليهم.
- الرزق على الله.
- ونعم بالله.
- اسـمعي..احنا المشردين المهجرين من اوطاننا حكاياتنـا كثيـرة، كلنـا قرايـب، وكل غريب للغريب قريب.
تركتها بعد ان قبلتها وبكينا للفراق وتواعدنا ان نلتقـي فـي لقـاء قريـب، تركتهـا وركبت باص المخيم ، كلماتها كانت مليئة بالاحرف التي كنت اعجز عن النطـق بها، كل الحكايات مخبأة في وجهي، حكاية ابي وامي حكاية الاغتصاب لامـي ولي وربما لمعلمـاتي الفاضـلات والتـشرد والمخيمـات وسـاكن القبـر الخـامس والياسـمين والرسـائل التـي دفنتهـا مكانـه وعـدت واخرجتهـا وصـديقي الطفـل ماسح الاحذية والمتسولة امام باب المسجد ،كلها حكايات مخبأة فـي وجهـي بين عيوني.
دخلت المخيم.
سنوات طوال لم اره، لم اتعرف عليه اولا، كنت مـن الـذين نـسوا المخـيم ومـن فيه.

سألت الجالسين امام الدكاكين عن بيت اقاربي، لم يعرفه اول الامر الكثيرون، توسع المخيم وازداد توسعا وعمرانا .
-19-
في ايلول اخر ، في 1982/9/16 وفي سنة كنت اعد نفسي فيها لان اصبح طبيبة، كنا فرحين باقتراب موعد تخرجي من الجامعة، كان لي يومان لم ارك فيها ، كان اليوم بداية الاسبوع حيث اكون دائما مشتاقة لك ، افتقدك في نهاية الاسبوع عندما نفترق انت الى الرمثا وانا الى المخيم، كنت اجهز نفسي كعروس كي القاك ، اليوم موعدنا في شارعنا ، شارع الاداب، لقد نسيت في هذا الصباح موعدنا، اتدري انها المرة الوحيدة التي نسيت فيها موعدك، ليست ذاكرتي هي السبب، انما ما جاء به قريبي الذي اسكن معهم في المخيم .
عاد الى البيت بعد ان خرج ساعة ،جاء يحمل بيده جزءا من جريدة، ويبكي، كنت اعد نفسي للقائك، وكانت زوجته تقوم باعمال البيت الصباحية، دخل والدموع تنزف من عينيه وقال:
- فعلوها مرة اخرى..ذبحوهم.
قالت الزوجة:
- من الذي فعلها وذبحوا من..هل جننت؟ هل جرى للاولاد مكروه؟
لم يتكلم ، لم تجرؤ الحروف ان تخرج من بين شفتيه.
قلت له:
- لماذا تبكي يا عمي؟ اخبرنا وارح قلوبنا..قتلتنا بصمتك.
ظل صامتا الا من البكاء، صرخت زوجته في وجهه، اشار الى الجريدة التي يحملها، سحبتها زوجته من يده وقالت:
- اقرأي ما فيها.
امسكت الجريدة وقرأت:
(دخلت مجموعات ذئبية امس الاول مخيم شاتيلا وحي صبرا المجاور واستباحته وفتكت بالمدنيين فتك الضواري، وتضاربت المعلومات عن حقيقة ما جرى صبيحة ذلك اليوم وفي اليومين التاليين لكن من المؤكد ان هذه المجزرة لم تكن رده فعل على اغتيال بشير الجميل في 1982/9/14 بل كانت جزءا من خطة مدبرة اعدها باحكام وزير ا لدفاع الاسرائيلي اريئيل شارون ورفائيل ايتان رئيس الاركان الاسرائيلي وجهات محلية اخرى في طليعتها القوات اللبنانية.
وذكرت مصادر مطلعة انه كان هناك اجتماع ضم شارون واومير دروري وايلي حبيقة رئيس جهاز الامن في القوات البنانية واكد المصدر نفسه انه اقر في هذا الاجتماع الاسراع في ادخال مجموعات من افراد الامن الى مخيم شاتيلا.)
ومما جاء في خبر الجريدة:
(بدأت المجموعات المتفق عليها في الاجتماع في تجميع افرادها ومعداتها في مطار بيروت الدولي استعدادا لساعة الهجوم وما ان اطبقت العتمة على المخيم ومحيطه حتى راحت القوات الاسرائيلية تلقي القنابل المضيئة فوق مسرح العمليات، وفي هذه اللحظات بالتحديد كان افراد القوات اللبنانية يطبقون على سكان المخيم الغارقين في ليلهم وبؤسهم .
وذكر ناجون من المذبحة الذين وجدوا يهيمون على وجوههم ذاهلين تائهين روعّتهم المأساة وتركت في نفوسهم ندوبا من الاسى الاليم بعدما فقدوا كل شيء ، اباءهم وامهاتهم واخواتهم واطفالهم وزوجاتهم وبيوتهم وصور الاحبة

واشـياءهم ذكـروا ان سـكان المخـيم تعرضـوا للقتـل الجمـاعي والاغتـصاب والتشريد واجمعوا ان عدد القتلـى يتـراوح مـا بـين (2000 الـى 3000) شـهيد ا ثلثهم من اللبنانيين المقيمين في محيط المخيم في منطقتي الحرش والحـي الغربي في الحي المعروف بحـي البعلبكيـة وشـهداء فقـراء مـن مـصر وسـوريا وايران وباكستان كانوا يعيشون مع الفقراء اللبنانيين في المنـاطق القريبـة مـن مستشفى عكا ومخيم شاتيلا.)
اسرعنا بفتح التلفزيون بحثـا عـن المحطـات العربيـة، بحثنـا فيـه عـن اي شـئ يعلمنا عن المذبحة، لكنها كانت تغني ومشغولة بالنشيد الوطني.
اسرعت الزوجة الى الراديو وفتحته، حاولنا التقاط أي خبر من الاذاعـات العربيـة لكنا فشلنا.
بكينا ايلولا اخر، بكينا مذبحة جديدة انضمت لشلال الـدماء الـذي لا يـزال يقطـر دما الى يومنا هذا.
قمت لصنع القهـوة بعـد ان قـررت الغـاء ذهـابي اليـوم الـى الجامعـة، شـربناها ممزوجة بالدمعة، كانت شقيقة قريبتي تسكن في مخيم شـاتيلا، الـزوج خـرج للاتصال بالهاتف والتقاط الاخبار لكنه عاد دون ان يحمل أي شـيء يطمئنها عـن شقيقتها، بكت كثيرا على شقيقتها التي تجهل مصيرها. دعـت الله ان ينجيهـا واستغفرته كثيرا .. وقالت:
-استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم ، يارب خلـصتنا مـرة فخلـص شـقيقتي مرة ثانية.
حاولت تهدئتها لكنها بكت وقالت:
- لم نر بعضنا البعض منذ سنوات كثيرة كنا صديقتين اكثر منا اختين، نجونا مـن مذبحة دير ياسين وهربنا الى مخيم في الضفة الغربية ولما اشـتد علينا القتال هربنا بانفسنا وارواحنا واعراضـنا ، انـا تزوجـت فـي الاردن واختـي تزوجـت فـي لبنان.
قبل الشتات الاول كنا نسكن دير ياسين ، طفلتين ما نزال في سنواتنا الاولى.
قالت زوجة قريبي:
- كنا انا واختي شـقيقتين توأمين لا نفترق ابدا حتى عند النوم كنا نتشارك في الفراش، كنا طفلتين مدللتين عند امنا ، وكنا شقيتين لدرجة ان ابي كان يـدعو علينا بالموت ويقول :
- الله يعين من تكن زوجات لهم.
كنا نسكن قرية دير ياسين ويسكننا الالم والخوف، وفي منتصف ليلـة ايلوليـة ، كانت الساعة الثانية فجرا داهمت عصابات صـهيونية قريتنـا وشـرعوا بقتـل كـل من وقع في مرمى اسلحتهم.
كنا انا وشقيقتي التوأم نتقاسم فرشـة وابـي وامـي فـي غرفتهمـا ويـشاركنا الغرفة اخواني اما الغرفة الثالثة فكانت مخصصة لجدي وجدتي العاجزين.
سمعنا اصوات الانفجارات في ا لخارج ، اعتقدنا بداية الامر انها معركة مع الثـوار لكن ابي عاد بعد ان استطلع الامر وقال:
- العصابات الصهيونية يقتلون الجميع.
ارتجفنا خوفا ورعبا. قالت امي.
- ماذا نفعل؟ كيف ننجوا باطفالنا.؟
كان منزلنا بعيدا شـيئا مـا عـن وسـط القريـة ، اختبأنـا معتقـدين ان هـذا البعـد سيحمينا من ا لقتل.

كنا نبكي حالنا وحال الحرية عندما دخل اعمامي وعماتي ملتجئين الينا وهاربين من وسط القرية .
قال عمي:
-يرمي الارهابيون الصهاينة القنابل داخل المنازل لتدميرها على من فيها.. يحاولون تدمير بيوت القرية وكل من يخرج من بيته حيا يجد ارهابيي الارغون وشتيرن له بالمرصاد فيقتلوه.
وفي وقت صلاة الظهر كان الرجال يؤدون الصلاة في المنزل جماعة عندما سمعنا صوت الاليات الصهيونية تقف امام منزلنا ، جمعونا قبل انسحابهم مع من بقي حيا وصفوا الرجال والشيوخ والنساء امام الجدران وقتلوا الجميع ولم ينج سوى الاطفال الذين اختبأوا وراء اهلهم.
بكت قريبتي وقالت:
- كنا انا واختي طفلتين وكان الرصاص مزق اجساد اهلنا، قتلوا امي وابي وجدي وجدتي واعمامي وعماتي وعددا من اولادهم.
وقالت:
- رأيت يهوديا يطلق رصاصة فتصيب زوجة عمي الحامل، ثم شق بطنها بسكين وقتلوا جنينها.
كنا اكثر من عشرة اطفال ، الناجون الوحيدون من المذبحة ، حملنا الصليب الاحمر واخرجونا من قريتنا بعد ذلك افترقنا انا واختي انا تزوجت في الاردن واختي تزوجت في لبنان وتقيم في مخيم شاتيلا.
خلال السنوات التي تلت عودتي من المقبرة الى المخيم، كنت اراقب الزوجة قريبتي ، اكثر من مرة كنت ا فتح باب غرفتنا، اصبح لنا غرفة منفصلة عن غرفة الزوجين، افتح الباب وانظر باستمرار من شقه الصغير علّي ارى قريبتي تغادر فراش زوجها الى المرحاض، لكنها لم تفعل، كنت اتمنى ان لا ارى شيئا.
**
-26-
عندما دخلت صفي في مدرسة الوكالة بعد عودتي للمخيم من المقبرة، رأيت في عيون معلمة التاريخ كرها خاصا بي لا ادري من اين اتى لها، لكنها كانت تكرهني بدون مقدمات او نهايات.
عندما دخلت معلمة التاريخ الصف وكنت اجلس في المقعد الخلفي ، كان المقعد الوحيد الذي تجلس فيه ثلاث فتيات وكنت رابعتهن، اغلقت باب الصف خلفها وقالت بصوت قادم من اعماق حروب المغول:
- اين البنت الهاربة؟ اين الفتاة التي تركت الملجأ وهربت.
لا ادري اهو التحدي ام الخوف، لكني وقفت وقلت لها:
- انا،
نظرت اليّ بكره ، اقسم انه كره.
قالت:
- المدارس بتعلم الاخلاق، الاخلاق وبس، هل فهمت؟
لم اجبها ، وتناسيت وجودها في الصف، معلنة لقلبي انني اول طالبة في الصف احبت ساكن قبر، بل في كل العالم بعد الامهات مفتخرة بعشقي المميز الذي ميزني عن الاخرين.
كان العشق بلغ بي للقبر الخامس وساكنه مبلغا تعدى العشق والهيام لدرجة انني كنت لا اشعر بالاخرين سواء كان في مدرسة الوكالة او في البيت

، ودربت نفسي على تجاهل من لا يحبني بأن اعود بذاكرتي الى القبر الخامس متناسيا أي اساءة او نظرة في غير محلها.
هي حالة لم اشعر بها من قبل ولم يشعرها من قبل احد من اهل المقابر، فقد اخذ شكل القبر الخامس الجميل بحجارته المتواضعة والمتراصة كأسنان المشط وجبلية التراب المرصوص على شكل جبل كالورد والياسمين، اصبح القبر الخامس عشقي لان من فيه اصبح يطرز احلامي ليلا، ويغزو خيالي العذب المعذب نهارا، لم اعد اطيق التسكع في شوارع المدينة والتسول، اقنع بالقليل واعود مسرعة الى القبر الخامس مشتاقة له تدفعني قدماي دفعا، لم اكن اعبأ باصوات الرصاص ومكبرات الصوت التي تذيع البيانات والخطابات.
وعندما كنت اقترب من باب المقبرة تتصلب عيناي باتجاه القبر الخامس علّ وعسى ان يكون خرج من القبر الخامس ساكنه وجلس بانتطاري وانتظار عودتي هياما بي وعشقا لي وخوفا عليّ، كنت ارى خياله دون معالم في خلواتي التي كانت تطول وتطول وانا اجلس عند رأسه اتابع اصوات صراصير الليل واعد النمل الذي يسير من مكان ما في المقبرة لم احاول معرفة مكان مستعمرته خوفا عليها مني، كان النمل يسير بخط مستقيم قاطعا عددا من القبور باتجاه مكان ما في المقبرة ويمر من فوق القبر ا لخامس دون ان يضل او يتوه ولم احاول ان اغير طريقه او اتجاهه.
كنت اعشق شبحا او قبرا لا ادري ماذا اعشق لكني كنت اشعر ان طيفا ما يراقبني في ليلي دون ان يحاول او يفكر بمس جسدي الذي لو طال بقاؤه في المقبرة لايام اخرى كان تعفن من شدة الروائح الكريهة التي كانت تحيط بي.
مضت الايام ومعلمة التاريخ تكرهني، ترفض ان تغير نظرتها لي، كنت احاول جاهدة اثبات براءتي لكنها كانت مصرة على اني فتاة هاربة فقط.
ازددت تعلقا بمعلمة التاريخ وزاد في نفسي الاصرار على تغير ما بنفسها.
وكانت حياتي منذ معلمة التاريخ الاولى في مخيم جنين مرورا بقتل والديّ والملجأ والهروب والمقبرة علمتني الصبر وعدم استعجال الامور، وقبول التحدي ، فلا شئ اخاف ان اخسره بعد ان خسرت كل شيء.
لكني لن استدر عطفها، ولن اخبرها بامري، لكنها ستحترمني يوما ما.
وكنت رأيتها اليوم في عرسنا لم تفارقني حتى لحظة فراق الناس لنا، منذ ثلاثة ايام وهي بجانبي ، لكنها لا تعرف عني الا ما كانت تعرفه قبل هذه الليلة.
كانت اخر المودعين وقالت لي:
-اذا شعرت انك بحاجة الى ام فانا امك.. لا ترددي.
-20-
بعد ان اكملت الصف الثالث الاعدادي ، انهيته بتفوق وكنت الاولى على صفي في مدرسة الوكالة، اردت من خلال الدراسة ان اعوض اياما عشتها بلا طفولة، وفي المدرسة عادت الي طفولتي، رجعت الي نفسي وشيئا فشيئا وبمساعدة اقربائي رجعت الي طفولتي.
عدت مسرعة الى البيت بعد ان قضيت ساعتين في المقبرة ، زرت خلالها كل القبور التي اعرفها والتي جاءت بعد رحيلي، كنت كل مرة اذهب فيها الى المقبرة واعود متأخرة توبخني قريبتي خوفا علي.

عندما كنت اعود الى المخيم كانت قريبتي توبخني وتقول لي:

في ذاك اليوم عدت واذا بقريبتي تسحبني من يدي الى الداخل، خفت من قسوتها في هذا اليوم لاني تأخرت كثيرا، لكنها كانت لطيفة هذه المرة وقالت:
_ الم اقل لك ان لا تتأخري.. نحن نخاف عليك.
لم تصدق اذناي ما تسمع، احست قريبتي باستغراب عيوني. قالت:
- انا يا ابنتي عندما اقسو عليك من اجلك ومن اجل مصلحتك. نحن نخاف عليك مثل بناتنا.
صمتت ولم اتكلم، كنت متأكدة ان ذهابي بين الحين والاخر الى المقبرة يعتبر خطأ كبيرا لكني غير قادرة على التخلص من زيارتها.
قالت قريبتي:
- اسمعي يا ابنتي كل بنت ولا بد من يوم تتزوج فيه، وانت بتعرفي ابن حارتنا الميكانيكي، اليوم جاءتنا امه لخطبتك.
دموعي احيانا كثيرة لا تستأذنني بالنزول من عيوني، وهذه المرة لم تستأذني دمعتي التي وصلت الى شفتي بالنزول.
عندما رأت قريبتي دموعي ضمتني الى صدرها وقالت:
- لا تفكري انا نرميك، احنا بدنا مصلحتك، والرأي رأيك واحنا مستعدين نفديك بعيونا، انت واحدة من اولادنا.
تمنيت ان اتزوج، لكن هل سيصدق احد اني بريئة، واذا اكتشفوا امري الى من التجئ والى اين اذهب، وماذا سيحل بالعائلة التي اعتبرتني ابنتها. لكني سأرفض كل عروض الزواج بحجة دراستي وسأتفوق بمدرستي حتى ادخل الجامعة واعيل نفسي.
قلت لقريبتي :
- انك امي وامري بيدك ، لكني اريد ان اكمل دراستي ، وانت ترين انني من المتفوقات في المدرسة ارجوك..
ضمتني بشدة ثم وضعت يديها على كتفي ومسحت دمعتي وتبسمت بحنان وتركتني وخرجت.
جعلني امر الخطبة اصر على اكمال دراستي وظل امر زواجي اذا فشلت في المدرسة الحل الوحيد امام عائلتي هو الذي يدفعني دفعا نحو التفوق حتى اللحظة التي تخرجت فيها من كلية الطب .
انت الوحيد الذي اخبره من تلقاء نفسي وليس من دفع ذاكرتي ، اخبرك وحدك في هذه الدنيا لانك وحدك من كان بين الاحياء املي.
**
-21-
في ليلة حنائي نظرت في الوجوه النسائية المجتمعة والجالسة امامي ، كانت وجوه نساء المخيم تشع منها الفرحة حقا او زورا ، المهم انها كانت افراحا، نظرت في وجوه نساء المخيم الموجودات لفرحي وتفريحي كان هناك وجه غائب عن هذه الامسية ، وجه لايجوز له ان يغيب لان وجوده اهم من العروس نفسها، مع ان الغرفة الصغيرة كانت تضم اغلب نساء المخيم الا اني لم اجد وجه امي.
اين هو وجه امي ؟انا لا اعرفه.
اريد وجه امي ، اريد امي في ليلة حنائي وفي يوم زفافي.

كل بنت تجد امها قربها في مثل هذه الليلة ، توصيها في ليلة زفافها وتعلمها كيف تصبح امرأة وزوجه صالحة، دائما الام اخر من يتكلم مع العروس لان كل ام يكون حلمها هذه الليلة .
انا اريد وجه امي ودموعي تطلب دمع امي لتودعني، اريد وجه امي ليرى منظر شعري الطويل الذي ما زال يطول ومازلت ادهن بزيت الزيتون ، حتى وانا طالبة في كلية الطب لم اتوقف عن دهنه بزيت الزيتون اكراما لوجه امي الي كانت تعشق شعري الطويل.
شعري الطويل الذي كانت تحبه وتضربني اذا لم احافظ عليه ، شعري الذي دفعت الكثير من اجل ان احافظ عليه ولم اسمح للمسؤولة في دار ايواء الايتام ان تقصه.
اريد وجه امي في هذه الليلة ،لكن وجهها غائب حتى اني لا أعرفه ولم أره حتى في أحلامي.

-22-
عندما صاح الديك المجاور لمقبرة ليلى معلنا يوما جديدا، وبدأ الفجر يطارد الليل متآمرا مع الشمس من أجل النهار ، وبدت القبور تظهر بشكل حي.
- حكايتك عجيبة وغريبة، عشت طفولة مدمّرة وحياة مليئة بالعتمات، لكنك تستحقين الاحترام كل الاحترام على شجاعتك وعصاميتك . انهضي لكي ارسلك الى المخيم.. جئت متأخرة.. متأخرة جدا ولم تأتي فجأة .
- بامكانك العودة الى الحارة القبلية ، الحارة القبلية اصبحت جزءا من كياني مع اني لم ازرها كثيرا ، كنت اتمنى ان اكون منها من ابنائها. بأمكانك العودة الى الحارة القبلية.. سأذهب الى المخيم وحدي.
- لكنك بثياب العرس، سأوصلك بسيارتي.
ابتسمت ، صرت عيونها ، كان هناك دمعة حرى لكنها لم تنزل.
- سأذهب لوحدي.. احضرت معي عباءة سوداء وغطاء رأس.. علمت اني سأعود وحدي.

النهاية

الرمثا في 10/ 11/2002م الساعة 8.55 يوم الاحد مساء الخامس من رمضان.